العبادة والعبودية

(نظرات قرآنية)

العبادة والعبودية
(نظرات قرآنية)
تأليف
إحسان بن صادق اللواتي
XKP

العبادة والعبودية

(نظرات قرآنية)

تأليف

إحسان بن صادق اللواتي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بَطَنَ خفيّات الأمور، ودلّت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصير، فلا عين من لم يره تُنكره، ولا قلب من أثبته يبصره، سبق في العلو فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدنوّ فلا شيء أقرب منه، فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به، ثم أزكى الصلاة وأكمل السلام على سيد الأنام وخاتم الأنبياء والمرسلين الحبيب المصطفى محمد، وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد، فقد أولى القرآن الكريم العبادةَ اهتمامًا عظيمًا، فتناولها في الكثير من آياته الشريفة، وعرض لأبعاد متنوعة مما يتعلق بها ويرتبط بشأنها، فقد عدّها

الغايةَ من خلقة الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١]، وتحدث عن آثارها الإيجابية الكبيرة في أهلها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾[٢]، ووسّع في هذه الآثار الإيجابية توسعة عظيمة حتى شملت جوانب الحياة المختلفة من خلال ربطه العبادةَ بتحقيق التقوى، التقوى المطلقة التي لا تعرف تقيّدًا بمجال ولا انحصارًا بجانب دون غيره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣]، وأراد لهذه الآثار الإيجابية الواسعة العميقة أن تستمر ما بقي هذا الإنسان حيًا، فلا حد للعبادة ولا أجل لها إلا الموت: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٤]، فـ «اليقين» في الآية هو الموت، كما سيأتي بيانه تفصيلًا إن شاء الله.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

إنّ عبادة الله تعالى وترك عبادة غيره عهدٌ أخذه الله على الناس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[1]. والالتزام بمقتضى هذا العهد هو الفارق الأساس الذي يفرق بين المسلم الحقيقي وغيره من الناس: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[2]، ولا يمكن لأي إنسان أن يكون على الصراط المستقيم إلا بالأخذ بالعبادة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[3].

العبادة، بناءً على ما تقدم، هي الأساس والطريق والمنتهى، فهي لأجل تكامل هذا الإنسان وسموّه وارتقائه إلى المراقي العليا التي تشرق فيها روحه، وتشفّ نفسه،

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٠- ٦١.
(٢) سورة «الكافرون»، الآيات: ١ - ٦.
(٣) سورة مريم، الآية: ٣٦.

وتتهذب أخلاقه، ويصبح بكل ما فيه إنسانًا كاملًا يتسم بلياقة الظفر بالنعيم الإلهي الخالد الذي ادخره لعباده المتقين الصالحين؛ ذلك أنّ العبادة - حينما تكون حقيقية مؤثرة في صاحبها - تجعل المتصفَ بها يسلك طريق العبودية في حياته كلها، أي يتحرك في كل جوانبها وأبعادها من منطلق كونه عبدًا لله تعالى، ليس له أن يعصي أوامره أو أن يتمرد على تعليماته، في أي آنٍ من آنات وجوده.

للعبادة والعبودية كان هذا الكتاب الذي هو، في أصله، مجموعة من المحاضرات كنتُ قد وُفقتُ لتناولها في شهر رمضان الماضي (١٤٣٩هـ) في حلقات برنامج إذاعي أذاعتْه إذاعة القرآن الكريم في سلطنة عمان، علمًا أنّ الكتاب لا يرمي إلى تناول هذا الموضوع المهم من كل أبعاده وقضاياه، ولا يستهدف الوقوف عند كل الآيات القرآنية التي اهتمت به، كما أنه ليس من غرضه أن يشمل كل العبادات المشروعة في الإسلام بالدرس والعرض. إنما هو تعرّض لآيات معيّنة تناولته، من جهات محددة

وأبعاد معيّنة، قد تفيد المتلقي في التزود بما فيها هي تحديدًا من عبق البيان القرآني المعجز.

أسأل الله - جلّ شأنه - أن يتقبل هذا الجهد المتواضع بقبول حسن، وأن ينفعنا جميعًا به، ويجعله سببًا إلى نيل رضوانه والظفر بواسع رحمته.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

إحسان بن صادق بن محمد اللواتي
١٨ من شعبان ١٤٤٠هـ
مسقط، سلطنة عمان
ehsansadiq@hotmail.com

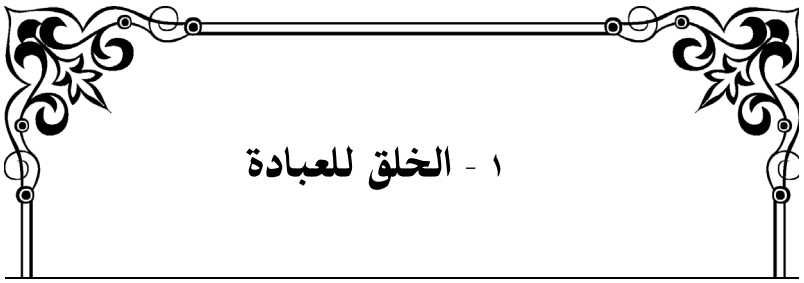

١ - الخلق للعبادة

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)].

تتحدث الآية المباركة عن غرض خلقة الجن والإنس، فتجعله محصورًا في عبادة الله جلّ وعلا. ولا بد، في البدء، من الإشارة إلى أنّ تقدّم ذكر الجن على الإنس ليس تقدمًا راجعًا إلى كونهم أفضل أو أشرف. بل هو مرتبط بكون الجن أسبق خلقًا من الإنس، مثلما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[(٢)].

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

ثم، إنّ مفاد الآية الكريمة يستثير مجموعة من الأسئلة، أهمها:

السؤال الأول:

هل أفعال الله معلّلة بالأغراض كأفعالنا نحن؟ فنحن، في العادة، نفعل ما نفعله في الحياة لأغراض معيّنة نقصدها؛ لذا يكون من المنطقي المتقبّل أن يُسأل أحدنا عن غرضه الذي ابتغاه من فعله الفلاني، فهل الأمر مع أفعال الله تعالى هو كذلك أيضًا؟ بمعنى أنه من الممكن أن نسأل عن الغرض الإلهي من فعله الفلاني مثلًا؟ أليست هذه الآية تتحدث عن الغرض من الخلقة الإلهية؟

والجواب عن هذا السؤال: كلا، ليس للأفعال الإلهية غرض خارج ذاته المقدسة؛ ذلك أنّ أغراضنا نحن إنما هي لاستكمال النقص الموجود عندنا وسدّ حاجاتنا، فنحن نأكل ونشرب لأجل سد حاجة أبداننا للطعام والشراب، ونعاشر أصدقاءنا وإخواننا لسد حاجتنا العاطفية، ونقرأ الكتب لسد حاجتنا العقلية... وهكذا. ومن المعلوم أنّ

الله تعالى منزّه عن النقص وعن الحاجة، ويترتب على ذلك أن نقول بعدم وجود غرض إلهي خارج ذاته، والآيتان اللاحقتان تفيدان هذا: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[1].

ليس لله تعالى، إذًا، غرض خارجي من أفعاله، بل الغرض راجع إلى ذاته المقدسة، بمعنى أنه إنما خلق لأنه هو الله، وبتعبير العرفاء: «لأنه يحب كماله المطلق ويحب لصفاته أن تتجلى»، وهذا هو معنى قول الفلاسفة: «العلة الغائية في فعل الله هي نفسها العلة الفاعلية»، أي ليس ثمة من علة أبعد من الذات الإلهية المقدسة نفسها.

لكنّ هذا الكلام إن بقي هكذا بلا تتمة فإنه سيقود إلى لزوم كون الأفعال الإلهية لغوًا وسفهًا، فالأفعال التي ليس وراءها أي غرض لن تكون إلا أفعالًا سفهية لا تصدر من الفاعل الحكيم أصلًا. من هنا أضاف العلماء إضافة مهمة لكلامهم السابق فذكروا أنّ الأفعال الإلهية

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٧، ٥٨.

وإن كانت خالية من الأغراض الخارجية التي يعود نفعها إلى الله، لكنها ذات أغراض تعود إلى المخلوقات، أي إلى مصالحها، فالله تعالى يريد لمخلوقاته خيرها ومصالحها وما يحقق فائدة لها؛ لذا يفعل، فالغرض هنا راجع إلى الفعل وليس إلى الفاعل. وبناءً على هذا، لا تكون ثمة مشكلة في أن نسأل عن الغرض من الخلقة الإلهية، ويكون مرادنا من السؤال هو أن نفهم المصالح الراجعة إلى المخلوقات من وراء خلقها.

وقبل أن نترك هذا السؤال وإجابته، من الحريّ بنا أن ندرك الفائدة التي لأجلها يلحّ القرآن الكريم على تذكيرنا بالغرض من خلقتنا، إذ أنّ معرفتنا بهذا الغرض هي التي تبني في عقولنا قاعدة فكرية رصينة تعي الهدف من الوجود والغاية من الخلقة، ولا شك أنّ هذه القاعدة ستترك أثرها في النفس البشرية التي تمتلئ، بعد ذلك، اطمئنانًا وثقة وراحة حين تعرف من أين جاءت؟ ولماذا خُلقت؟ ثم، أخيرًا، لا ريب في أنّ العقل الواعي للهدف والنفس المطمئنة به سيجعلان من صاحبهما إنسانًا يقطع طريق

الحياة برزانة واستقرار واعيًا بما ينبغي وما لا ينبغي له فعله في الحياة.

إنّ أهمية ذلك كله تظهر بجلاء حينما ينظر المرء إلى أولئك الملحدين الذين لا يؤمنون بأي مبدأ ولا غرض لوجودهم، فتراهم يتخبطون في أمراض معقدة تتمثل في مظاهر من قبيل اللا أدرية والعبثية و«الغثيان» السارتري والغربة الوجودية إلخ. وتظهر، كذلك، حين يتأمل المرء حالة بعض الذين لا يحملون في أذهانهم من الأهداف إلا الأهداف المادية الدنيوية وحدها، مع أنهم يكونون مؤمنين بربهم، فتراهم يركضون ليلهم ونهارهم وراء الأموال والمناصب متناسين الأهداف الحقيقية التي خُلقوا لأجلها، ومتناسين مثل وصية الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «فاعملوا والعمل يُرفع، والتوبة تنفع، والدعاء يُسمع، والحال هادئة، والأقلام جارية»[1].

(١) ميزان الحكمة، محمدي الري شهري، ٧: ٩.

السؤال الثاني:

حصرت الآية المباركة الغرض من الخلقة في عبادة الله تعالى، وذلك باستعمالها أسلوب القصر بالنفي والاستثناء (ما وإلا)، لكن قد يُسأل عن وجه انسجام هذا الحصر المذكور هنا مع وجود أغراض أخرى للخلقة ذكرتها آيات أخرى:

أ - الامتحان الإلهي، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١). وواضح أنّ المقصود من هذا الامتحان الإلهي ليس أن يعلم الله تعالى بعده ما لم يكن يعلمه قبله، فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية، بل المراد ظهور نتائج الامتحان في الواقع الخارجي، والتحوّل من حالة القوة إلى حالة الفعل.

ب - العلم به سبحانه وبقدرته، قال جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾(٢).

---

(١) سورة الملك، الآية: ٦.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

وثمة روايات دلّت أيضًا على أنّ الغرض من الخلقة هو العلم بالله (تبارك شأنه)، ففي الحديث القدسي: «كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببت أن أعرف، وخلقتُ الخلق لكي أُعرف»[١]. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال: إنّ الله عزوجل ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»[٢].

ج - الرحمة، وقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾[٣].

فإذا كان هذا هكذا، وكانت هناك أغراض متعددة

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ١٧: ١٠٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ١٨: ٣٩٠.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٨- ١١٩.

للخلقة ذكرتها الآيات الأخرى، أفلا يتنافى ذلك ويتعارض مع دلالة الآية محل كلامنا على كون الغرض من الخلقة محصورًا في العبادة؟ ثم كيف لنا أن نجمع بين هذه الآيات المختلفة الدالة على أغراض قد تبدو متضادة ومختلفة فيما بينها؟

أجاب العلماء عن هذا السؤال ببيان أنّ «بقليل من التأمل في مفهوم هذه الآيات وما شابهها نرى أنه لا تضاد ولا اختلاف بين هذه الآيات، ففي الحقيقة بعضها هدف مقدّميّ، وبعضها هدف متوسط، وبعضها هدف نهائي، وبعضها نتيجة. فالهدف الأصلي هو العبودية، وهو ما أشير في هذه الآيات محل البحث، أما العلم والامتحان وأمثالهما فهي أهداف ضمن مسير العبودية لله، ورحمة الله الواسعة نتيجة العبودية لله»[١].

الأغراض التي بيّنتها الآيات المختلفة، إذًا، هي أغراض طولية، بعضها مترتب على بعض، وليست

(١) الأمثل ١٧: ١٠١.

أغراضًا عرضية حتى يقال بوجود التنافي والتعارض فيما بينها. والآية التي هي محل كلامنا حينما استعملت أسلوب القصر فإنما ذلك بلحاظ الهدف الأصلي البعيد للخلقة، وهذا ما أفادته بعض الروايات أيضًا، فعن ابن أبي عمير أنه قال: «قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اعملوا فكلٌ ميسّر لما خُلق له؟ فقال: إنّ الله عز وجل خلق الجن والإنس ليعبدوه، ولم يخلقهم ليعصوه، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فيسّر كلًا لما خلق له، فويل لمن استحب العمى على الهدى»[1].

إنّ من المعهود في التخاطب العرفي بين العقلاء أنهم في حالة بيانهم لأغراض أفعالهم قد يذكرون الغرض القريب المقدّميّ، وقد يذكرون غرضًا من الأغراض المتوسطة، وربما يذكرون الغرض النهائي البعيد، من دون أن يرى العرف في الأغراض المختلفة التي ذكروها أي

(١) الميزان ١٨: ٣٩٠.

تنافٍ أو تعارض. ولنضرب، لتقريب الفكرة، المثال الآتي:

إذا أردتُ الحج مثلًا، فإني لا بد أن أسافر، ولكي أسافر ينبغي لي أن أشتري تذكرة سفر. فإذا افترضنا أنّ صديقًا لي قابلني في مكتب الطيران وسألني عما أفعل، فإنّ في وسعي أن أجيبه بأنني أشتري تذكرة سفر (وهذا غرضي القريب المقدّميّ)، وبإمكاني أن أقول له إنني أنوي السفر (وهذا غرضي المتوسط)، كما أنّ في مقدوري أن أوضح له أنني أريد الحج (وهذا غرضي النهائي البعيد). ومن الجليّ أنّ العرف لا يرى بين هذه الإجابات المختلفة تعارضًا أو تنافيًا، وهي كلها إجابات صحيحة وصادقة، غاية ما هناك أنها مترتبة طوليًا[١].

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أنّ العلماء وإنْ اتفقوا على كون أغراض الخلقة المذكورة في القرآن أغراضًا طولية، غير متنافية فيما بينها، إلا أنّ كلماتهم تختلف في بيان ترتيب هذه الطولية، فمثلًا يذهب الشيخ محمد تقي المصباح اليزدي إلى أنّ «الإنسان خلق ليبتلى، ليؤدي العبادة الاختيارية، ليصل إلى رحمة الله الأبدية الخالدة، فهذه أهداف طولية وليست متعارضة» (معارف القرآن ١: ٢٣٩)، وقد كان العلامة =

إنّ هذه الطولية في الأهداف القرآنية تعلّمنا أهمية التنظيم والترتيب في أهدافنا المختلفة، فلا ينبغي للعاقل منا أن ينظر لأهدافه كلها مجتمعةً بنظرة واحدة، بل عليه أن يفرّق بين الأهداف القريبة والمتوسطة والبعيدة، وعليه أن يصنّف هذه الأهداف من جهة درجة أهميتها أيضًا؛ كي لا يختلط الأهم منها بالمهم. وينبغي له أن يعي جيدًا أنّ عدم التفرقة والتصنيف سيقوده، في النتيجة، إلى العجز عن تحقيق أهدافه كلها دفعة واحدة، وسيتوقف تمامًا عن العمل والإبداع في الحياة، وهذا شيء يرفضه العقلاء بلا ريب، وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «المداومة المداومة، فإنّ الله لم يجعل لعمل المؤمنين غاية إلا الموت»[1].

= الطباطبائي أشار إلى هذا الاختلاف في الترتيب إذ قال: «فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه، هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك، ولو كان للعبادة غرض لخلقة كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضًا متوسطًا» (الميزان ١٨: ٣٨٦).

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٥.

وشيء آخر استفاده صاحب الميزان[١] من القصر بالنفي والاستثناء في الآية الشريفة، هو أنْ لا عناية لله بمن لا يعبده، وهذا ما يفيده كذلك قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[٢]. المطلوب من كل واحد منا، إذًا، أن يعتني بالعبادة، ويسعى إلى أدائها على وجهها المطلوب وبالطريقة الأمثل، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على عسر أم على يسر»[٣].

لكن، ما الذي عنته الآية الشريفة بالعبادة على وجه الدقة؟ هذا ما يعرض له السؤال القادم.

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٣٨٨.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.
(٣) ميزان الحكمة ٦: ٩.

السؤال الثالث:

ما المراد من هذه العبادة التي عدّها القرآن الكريم غرض خلقة الجن والإنس؟ قيل هي العبادة التكوينية، بمعنى كون الجن والإنس خاضعين في خلقتهم ووجودهم وبقائهم للنظام التكويني الذي خلق الله الكون كله على أساسه، وهم جميعًا يسبّحون ربهم بلسان الحال؛ لأنهم من مظاهر قدرته وحكمته في هذا الوجود، مثلما دلّت الآية الشريفة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١].

لكن هذا الرأي ضعيف من جهتين ذكرهما العلامة الطباطبائي بقوله: «وأما حمل العبادة على العبادة التكوينية فيضعفه أنها شأن عامة المخلوقات، لا موجب لتخصيصه بالجن والإنس، مضافًا إلى أن السياق سياق توبيخ الكفار على ترك عبادة الله التشريعية وتهديدهم على إنكار البعث والحساب والجزاء، وذلك متعلق بالعبادة التشريعية دون التكوينية»[٢].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤. (٢) الميزان ١٨: ٣٨٧.

العبادة المقصودة، إذًا، هي العبادة بالمعنى التشريعي، وهو المعنى المستمد من أصل معنى الكلمة في اللغة، ذلك أنّ «العَبْدية والعُبودية والعُبودة والعِبادة: الطاعة»[١]، وعلى هذا الأساس قيل: «حقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية، وتوجيه وجهه إلى مقام ربه»[٢]، وبتعبير آخر فإنّ «العبودية هي الطاعة بلا قيد ولا شرط، والامتثال للأوامر الإلهية في جميع المجالات»[٣]. ومن الواضح أنّ هذا المعنى معنى واسع الأكناف ممتد الأرجاء، وليس منحصرًا في العبادة بمعناها الخاص من صلاة وصوم وحج وغير ذلك، بل تُعدّ هذه من مصاديق العبادة وتجلياتها الخارجية، وقد ورد أنّ الإمام الصادق عليه السلام سُئل: ما العبادة؟ فأجاب: «حسن النية بالطاعة، من الوجوه التي يطاع الله منها»[٤].

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة «عبد».
(٢) الميزان ١٨: ٣٨٨.
(٣) الأمثل ١٧: ١٠٢.
(٤) ميزان الحكمة ٦: ١١.

السؤال الرابع:

إذا كانت العبادة، بمعناها التشريعي هي الغرض من الخلقة، فما بالنا نجد بيننا من البشر أناسًا لا يطيعون الله في حيواتهم، ولا يمتثلون أوامره الشرعية، ومنهم من لا يصلي ولا يصوم؟ أليس هذا منافيًا لغرض الخلقة؟

ذكر العلماء مجموعة من الإجابات عن هذا السؤال، أهمها:

أ - الإرادة في الآية (أعني إرادة الله عبادةَ الجن والإنس) هي إرادته سبحانه التشريعية، وهذه لا يتحقق المراد بها خارجًا إلا بتوسط إرادة العبد، فإذا لم يرد العبد التنفيذ لم يتحقق ما طلبه الله منه تشريعًا، فالله تعالى أوجب عليّ الصلاة (أي أرادها تشريعًا)، لكن هذه الصلاة لن تتحقق إلا إذا أردت أنا بإرادتي أن أصلي. فلا منافاة، إذًا، بين وجود الإرادة الإلهية التشريعية وعدم تحقق المراد في الواقع، وذلك إذا لم يشأ العبد الامتثال.

وهذا فارق مهم بين الإرادتين التشريعية والتكوينية،

فهذه الأخيرة تتحقق مباشرةً، دونما علاقة لإرادة العبد، أو الكون كله، بها: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، بخلاف الإرادة الأولى كما تقدم.

ب - «أل» التعريفية في ﴿ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ جنسية وليست استغراقية للأفراد، فيكفي في تحقق المطلوب أن يتحقق في بعض الأفراد دون جميعهم. فمثلًا يكون قولي: «الرجل أقوى من المرأة» صحيحًا وصادقًا حتى مع وجود بعض النساء اللاتي قد يكنّ أقوى من الرجال؛ وذلك لأنني في قولي لم أقصد استغراق كل الأفراد، أي لم أقصد أنّ كل رجل في الدنيا هو أقوى من كل امرأة فيها، بل نظرتُ إلى حقيقة الرجل وحقيقة المرأة، فيكفي لصدق كلامي انطباقُه على بعض الأفراد من الرجل والمرأة.

وفيما نحن فيه يذهب أصحاب هذا الجواب[2] إلى

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٢) ومنهم صاحب الميزان ١٨: ٣٨٧.

أنّ كون بعض الجن والإنس قائمين بعبادة الله يصحّح كونَ الغرض من الخلقة هو العبادة، ولا يتطلب الأمر أن يكون جميع الجن والإنس عابدين فعلًا.

لكن هذا الجواب - على وجاهته في نفسه - مخالف لصريح ما ورد في بعض الروايات الشريفة، فحين سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن الآية قال: «خلقهم للعبادة»، فسأله الراوي: خاصة أم عامة؟ فقال عليه السلام: «لا، بل عامة»[1]. فالرواية واضحة الدلالة على أنّ «أل» في الآية هي للاستغراق والعموم وليست للدلالة على الجنس كما ذكر الجواب.

ج - المقصود من خلق الجن والإنس للعبادة هو أنّ الله تعالى خلقهم مستعدين وصالحين للقيام بها، وهذا النحو من التعبير شائع في استعمالاتنا العرفية، «فمثلًا لو قلت إنني بنيت هذا المسجد ليصلي الناس فيه، فمفهومه أنني هيّأته لهذا العمل، لا أنني أجبر الناس على الصلاة

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ٥: ٣١٤ - ٣١٥.

فيه! وكذلك في الموارد الأُخر كبناء المدرسة للدرس، والمستشفى للتداوي، والمكتبة للمطالعة»[١].

ومن الجليّ أنّ هذا الاستعداد للعبادة موجود عند الجن والإنس جميعًا، فالله تعالى خلقهم ليأمرهم بعبادته ويكلفهم بها، وقد منحهم كل ما من شأنه أن يساعدهم على الامتثال، من الأنبياء والكتب السماوية من جهة خارجية، ومن العقل والقوى المختلفة من جهة داخلية. ونجد في بعض الروايات بيانًا لهذا، فمن ذلك أنّ سائلًا سأل الإمام الصادق عليه السلام: لم خلق الله الخلق؟ فأجابه عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقه عبثًا، ولم يتركهم سدًى، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلّفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة، ولا ليدفع بهم مضرّة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد»[٢]. التكليف بالطاعة، إذًا، هو

(١) الأمثل ١٧: ١٠٨.
(٢) بحار الأنوار ٥: ٣١٣.

غرض الخلقة، ولا يكون تكليف إلا لمن كان مستعدًا للامتثال وصالحًا للتطبيق، وهذا متوافر في الجن والإنس جميعهم.

السؤال الخامس:

ما أهم السمات التي تتسم بها العبودية الحقة لله ﷻ؟ وما أهم اللوازم التي يُتطلب توافرها في الإنسان الذي يريد أن يكون عبدًا صادق العبودية لربه (جلّ شأنه)؟

يمكننا إيجاز ذلك في نقاط عدّة:

أ - **المعرفة**، فلا عبودية حقة من دون معرفة، وهذه المعرفة ذات شقين مهمين: معرفة الله، ومعرفة العابد نفسَه. فأما معرفة الله فهي لا ريب في ضرورتها لمن أراد أن يسير في طريق العبودية، إذ كيف يمكن لهذا السير أن يكون منتظمًا موصلًا للمقصد إذا كان السائر لا يعرف مقصده من الأساس؟ ولأهمية هذه المعرفة وجدنا الحديث النبوي الشريف يقول: «أفضل الأعمال العلم

بالله، إنّ العلم ينفعك معه قليل العمل وكثيره، وإنّ الجهل لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره»[١].

وأما معرفة العبد نفسَه فتعني أن يعرف أنه مملوك لربه، وكل ما عنده هو مملوك لله سبحانه أيضًا، فلا يجوز له أن يتصرف في ملك الله بغير رضاه. وقد روي أنّ الإمام الصادق عليه السلام حين سُئل عن حقيقة العبودية قال فيما قال: «أنْ لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله ملكًا؛ لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك»[٢].

ب - **عدم التكبّر**، فالتكبّر صفة الخالق؛ لأنه الكمال المطلق، والجمال غير المحدود، ولا نهاية لعظمته ولا منتهى لشأنه، فهذه الصفة فيه حقّة وفي محلّها. أما الإنسان فليس في ذاته سوى الفقر والضعف والاحتياج، فبأي وجه وبأي حق يتكبر؟ يقول أميرالمؤمنين علي عليه السلام متعجبًا من هذه الحالة: «عجبت لابن آدم، أوله نطفة،

(١) ميزان الحكمة ٦: ١٥٦.
(٢) نفسه ٦: ١٢.

وآخره جيفة، وهو قائم بينهما وعاء للغائط، ثم يتكبر!»[١].

ج - **عدم الغفلة**، فليس مقبولًا ممن يتوخى الوصول إلى العبودية الحقة أن يكون غافلًا عن ربه، بل هو دائم الذكر بقلبه له سبحانه، وذكره هذا يستلزم كونَه مستحضرًا على الدوام مبدأه ومنتهاه، عاملًا لأجل الغاية التي خُلق لأجلها، دونما تضييع لفرصة العمر ونعمة الحياة فيما يُبعده عن ربه، أو فيما لا يزيده قربًا منه. وهذا، في الحقيقة، ما يقتضيه العقل السليم عند كل إنسان يؤمن بوجود الله تعالى؛ لأنّ إيمانه هذا يدعوه إلى الجزم بأنه مهما غفل عن ربه فإنه سبحانه لا يغفل عنه، وبأنه مهما اغترّ بالدنيا وزينتها فإنّ لها أمدًا تنتهي عنده. وهذا ما يدلّ عليه الحديث النبوي الشريف: «عجبٌ لغافل وليس بمغفول عنه، وعجبٌ لطالب الدنيا والموت يطلبه»[٢].

---

(١) نفسه ٨: ٣٠٩.
(٢) نفسه ٧: ٢٦١.

د - عدم تفاوت الحال في السرّاء والضرّاء، والحال المقصود هنا هو الحال القلبي، فالعبودية الواقعية تستدعي من صاحبها ألّا يكون من أولئك الناس الذين وصفهم القرآن بقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

الحال القلبي للإنسان المتسم بالعبودية هو حال الانقطاع إلى ربه، فهو يرى الأمور كلها، خيرها وشرها، مقاليدها بيد ربه، ليس لها أن تتحقق إلا بإذنه، وما من إذن من الحكيم الخبير إلا لمصلحة يعلمها، وإنْ خفيت على الآدميين جميعًا، وقد روي عن النبي الخاتم محمد ﷺ قوله: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»[2]. ويستدعي هذا ألّا يكون ارتباطه بربه في حالات الرخاء والسراء أضعف

(١) سورة الروم، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٦٨٨.

وأوهن من ارتباطه به في حالات الشدة والضراء، بل الحالات كلها سواء عنده.

إنّ عدم تفاوت حال قلب العابد هو ما أوضحته الآية المباركة: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]، وهي الآية التي أوضح الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنها مبيّنة لحقيقة الزهد في المنظور القرآني: «الزهد كله بين كلمتين من القرآن، قال الله سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ومن لم يأسَ على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهدَ بطرفيه»[2]. ومن الجليّ أنّ الزهد، في حقيقته، حالة قلبية تعني عدم التعلّق بالدنيا، ومن أهم أمارات ذلك عدم تفاوت حال هذا القلب، وعدم اختلاف مدى صلته بربه، ونوع هذه الصلة، في سرّاء كان أو ضرّاء.

هـ - عدم الاغترار بالأسباب المادية، فما أبعد ما

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣.
(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٤٣٩.

يكون العابد الحقيقي عن ذلك الإنسان المادي الذي إن رأى عند نفسه وفرةً في الأسباب المادية القائدة إلى القوة الظاهرية والثراء والسطوة اغترّ وتكبّر وتجبّر، وامتلأت جوانحه تيهًا وخيلاء، فإذا ما قلّت هذه الأسباب المادية أو ضعف حضورها عنده، صارت نفسه مترعةً بالخوف والقلق والأسى!

إنّ العبودية الصادقة تقتضي أن يكون المرء غير معوّل بقلبه على الأسباب الظاهرية، وإنْ كان هو مطالبًا بتوفير أسباب الخير والقوة والنجاح في الحياة، بيد أنّ قلبه مرتبط بمسبّب هذه الأسباب، سبحانه وتعالى، فهو من يجدر أن يتعلق به القلب ويؤمّل فيه الخيرالمرتجى، فعن رسول الله ﷺ: «يقول الله عزّوجلّ: ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعتُ أبواب السماوات والأرض دونه، فإنْ دعاني لم أجبه، وإن سألني لم أعطه»[1].

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٦٨٩.

السؤال الأخير:

هل للعبودية الحقة مراحل تمرّ بها في طريق تكاملها؟ وإنْ كانت، فما هي؟

يذكر العلماء والباحثون في مقام الإجابة عن هذا السؤال مجموعة من المراحل:

المرحلة الأولى: إدراك التعلّق، أي أن يدرك العبد بالعلم الحضوري - وهو العلم الذي يتطلب حضورالمعلوم بنفسه وليس بصورته الذهنية عند العالم به، مثما يعلم أحدنا بعواطفه وغرائزه مثلًا - أنه في وجوده متعلّق بالله سبحانه، بل هو في واقعه ليس شيئًا آخر غير التعلّق نفسه؛ لأنه ليس في ذاته سوى العدم والجهل والعجز، فلا مكان في حياته للغطرسة والتجبّر، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «بئس العبد عبد تجبّر واختال، ونسي الكبير المتعال»[١].

وإذا تحقق إدراك التعلّق عند العبد فإنّ من علاماته أن

(١) نفسه ٦: ٢٣.

يسعى دومًا إلى معرفة ما يريده مولاه منه، فيبادر إلى تعلّم الأحكام الشرعية الابتلائية، ويسعى أيضًا إلى تحقيق كل ما فيه رضا الله ﷻ واجتناب كل ما فيه سخطه، فقد ورد في حديث المعراج: «يا أحمد، هل تدري متى يكون العبد عابدًا؟ قال: لا يا رب، قال: إذا اجتمع فيه سبع خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وصمت يكفّه عمّا لا يعنيه، وخوف يزداد كل يوم من بكائه، وحياء يستحيي مني في الخلاء، وأكل ما لا بد منه، ويبغض الدنيا لبغضي لها، ويحب الأخيار لحبي إياهم»[1].

لكن هذا الإدراك للتعلّق، وحده، لا يكفي، فلا بد من المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: تبعيّة الإرادة، فتكون إرادة العبد تابعة لإرادة مولاه، بل تكون، في الحقيقة، مندكّة وذائبة فيها، فلا يريد العبد إلا ما يريده المولى، ولا تبقى له «أنا» في مقابل الله تعالى، يتحدى بها شرعه وأحكامه وما

(١) نفسه ٦: ١٢.

جاءت به أنبياؤه وكتبه السماوية، كما هو شائع للأسف في أوساط كثيرين ممّن يدّعون الوعي والتنوّر الفكري هذه الأيام!

لكنّ المشكلة أنّ تبعية إرادة العبد لإرادة المولى قد تتحقق أحيانًا على غير الوجه المطلوب، وذلك حينما يجعل أحدنا إرادته طبقًا لما يريده الله منه من منطلق علمه ويقينه بأنّ الدين لا يريد منه إلا كل ما فيه خير له، مثلما هو المستفاد من نصوص شرعية متعددة، كقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع: «يا أيها الناس، والله ما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه»[١]، وكبيان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام في وصيته إليه: «إنه - أي الله تعالى - لم يأمرك إلا بحَسَن، ولم ينهك إلا عن قبيح»[٢].

حالة هذا الإنسان، في الواقع، هي كحالة المريض

(١) ميزان الحكمة ٥: ٥٦٧.
(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

الذي يتبع أوامر طبيبه، ليس حبًا للطبيب، وإنما حبًا لمصلحة نفسه، تلك المصلحة التي هو متيقّن من أنّ أوامر الطبيب تحققها! من هنا تبرز الحاجة إلى وجود المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: تبعيّة الرضا، بأن يكون رضا العبد تابعًا لرضا مولاه، بغض النظر عن رغبته ومصلحته الذاتية، وبذا تكون هذه المرحلة أرفع من سابقتها، وفي فضلها ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «رأس طاعة الله الرضا بما صنع الله، فيما أحب العبد وفيما كره»[1].

غير أنّ تبعيّة الرضا هذه قد لا تكون ناجمة عن الرغبة في إرضاء المولى حقًا، بل لربما تكون ناجمة عن الطمع في الجنة أو الخوف من النار، فتكون العبادة عندئذ عبادة التجّار أو عبادة العبيد، كما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في تقسيمه الثلاثي المشهور:

(١) ميزان الحكمة ٤: ١٤٣.

«إنّ قومًا عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار، وإنّ قومًا عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنّ قومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار»(١).

وليس ثمة من شك في أنّ العابد الحقيقي لا يقنع بأن تكون عبادته في هذا المستوى من الطمع والخوف العائدين بالنتيجة إلى مصلحته الفردية، مرةً أخرى؛ لذا ستشرئب عنقه وتتوق إرادته إلى المرحلة الأخيرة الآتية.

المرحلة الأخيرة: قصد وجه الله سبحانه، أي أن يُعبد لأنه الله تعالى، الخالق المنعم المدبّر ذو الجلال والإكرام، وليس لأنه أعدّ جنةً لمن أطاعه ونارًا لمن عصاه. هنا يرتقي العبد في علاقته بربه مرتقًى عظيمًا، فيتصل بربه ويعبده متخليًا عن مطامعه ومخاوفه الذاتية، ويجعل علاقته به متمحضة في عبوديته له، وهي المرحلة التي يسمّيها بعض علماء العرفان والأخلاق بمرحلة «لقاء الله»، أي اللقاء القلبي الشهودي في هذه الحياة الدنيا، حين يقصد العبد

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٧.

وجه الله تعالى خالصًا في كل أقواله وأعماله وسلوكه وعباداته، مثلما يعلّمنا القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها مثلًا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١]، ومنها أيضًا: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

ونقرأ في الروايات الشريفة بيانات كثيرة لرفعة شأن هذه المرحلة وأهمية مكانتها، فعن أعظم البرية محمد ﷺ أنه قال: «طوبى للمخلصين، أولئك مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء»[٣]، وورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «ضاع من كان له مقصد غير الله»[٤]، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله عزوجل على عبد أجلّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره»[٥].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.
(٣) كنز العمال، المتقي الهندي، الحديث ٥٢٦٨.
(٤) ميزان الحكمة ٣: ٦٢.
(٥) نفسه، ٣: ٥٨.

٢ - عبادة الهوى

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

تتناول هذه الآية المباركة صورة للعبادة مخالفةً تمامًا للصورة التي تقدمت في الآية السابقة من سورة الذاريات، فلئن كانت تلك قد تحدثت عن عبادة الله تعالى وكونها غايةً للخلقة، فإنّ هذه تعرض للعبادة عندما تنحرف عن صراطها السويّ لترتبط بالهوى النفسي.

وذكرت المعاجم اللغوية أنّ «الهوى مقصور، مصدر

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

هَوِيته، من باب تعب، إذا أحببته وعَلِقت به، ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في ميل مذموم فيقال: اتّبع هواه، وهو من أهل الأهواء»[1].

تبتدئ الآية باستفهام: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾، وقد ذكر المفسرون أنه تعجيبي، أي يراد منه إدخال التعجب في نفس الرسول الأكرم محمد ﷺ، والمعنى: تعجّب يا محمد ممّن اتخذ إلهه هواه!

لكن، ما معنى كونه ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؟

اختلف المفسرون في المراد نتيجة اختلافهم في حصول التقديم والتأخير أو عدم حصولهما في المفعولين:

فأما على القول بعدم الحصول - أي أنّ الإله هو المفعول الأول والهوى هو المفعول الآخر - فيكون المراد: تعجّب يا محمد ممّن اتخذ معبوده ما يهواه، فإذا هو أحب شيئًا وهواه اتخذه إلهًا معبودًا!

وقد نقل السيوطي عن ابن عباس أنه قال: «كان

(١) المصباح المنير، أحمد الفيومي المقريّ، مادة «هوي».

الرجل من العرب يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه أخذه وألقى الآخر، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[١].

وأما على القول بحصول التقديم والتأخير في المفعولين - بأنْ يكون الهوى هوالمفعول الأول والإله هو المفعول الآخر المقدّم - فإنّ المعنى يكون: تعجّب يا محمد ممّن اتخذ هواه إلهًا معبودًا! وهو المعنى الذي تحدّث عنه الحديث النبوي الشريف: «ما تحت ظل السماء من إله يُعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متّبع»[٢].

وبناءً على هذا المعنى ينفتح المجال لإثارة سؤال بلاغي عن الغرض من تقديم المفعول الآخر على المفعول الأول، فهذا مخالف للأصل، ويعدّ خروجًا عن مقتضى الظاهر، فما سببه؟

أجاب المفسرون عن هذا السؤال إجابات عدّة، لعلّ أبرزها ما ذكره العلامة الطباطبائي من أنّ تقديم «إلهه»

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، ٥: ٧٥٨.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٣٧٧.

على «هواه» إنما هو للإشارة إلى أنه يطيع هواه مع علمه ويقينه بأنّ له إلهًا حقًا - وهو الله تعالى - يجب عليه أن يعبده[١].

وهذه، في الواقع، طامّة كبرى وداهية عظمى: أنْ يكون الإنسان مؤمنًا بالله سبحانه من الناحية النظرية، لكنه في واقعه العملي يسير في طريق عبادة الهوى الذي يسيطر على النفس حتى يستعبدها، مثلما ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «الهوى إله معبود»[٢].

أسباب عبادة الهوى:

لا ينبغي لنا أن نمرّ بهذه الحقيقة مرورًا سريعًا سطحيًا دون أن نقف عندها لنتساءل: ما الأسباب التي تجعل للهوى كل هذا التأثير في النفس البشرية، حتى إنّ الإنسان قد يتبعه، عبدًا خاضعًا ذليلًا، مع يقينه بخطأ ما يفعل؟

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٨: ١٧٢.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٣٧٦.

يمكن هنا بيان مجموعة من الأسباب لذلك:

١ - الهوى يُعمي صاحبه ويصمّه عن الآثار السلبية التي ستنجم عن اتّباعه له، وهذا ما نبّه عليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «من اتّبع هواه أعماه وأصمّه وأذلّه وأضلّه»[١].

ونقرأ في التاريخ أمثلة كثيرة لأناس ألحّ عليهم الهوى حتى عموا وصمّوا عن نتائجه الضارّة، منهم ثعلبة بن حاطب الذي استولى على قلبه حب المال، فطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو له بأن يرزقه الله مالًا، وتعهّد بأن يعطي كل ذي حق حقه إن تحقق له ما يريد، فما كان من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن حذّره من عاقبة ما يهواه، قائلًا: «ويحك يا ثعلبة، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيق شكره»، لكن ثعلبة سيطر هواه عليه فجعله لا يعير هذا التحذير النبوي الصريح اهتمامًا، وأصرّ على النبي بالدعاء، فدعا له صلى الله عليه وآله وسلم، واتّجر واشترى غنمًا، فبورك له

(١) نفسه ١٠: ٣٧٨.

فيها حتى جعلته كثرة الأغنام يترك المدينة ولا يشهد مع رسول الله ﷺ جمعة ولا جماعة ولا جنازة، وانتهى به الأمر إلى الامتناع عن أداء الزكاة، بل إلى إنكار وجوبها قائلًا: «ما هذا إلا جزية»، فنزل قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[1].

٢ - لا يكتفي الهوى بما تقدم ذكره من إلهاء الإنسان عن آثاره السلبية حتى يجعل هذا الإنسانَ يراه أجمل مما هو عليه في الواقع، أي أنه «يزيّن» له اتّباعه، فينخدع به ويسير وراءه عن طواعية وطيب خاطر، متوهمًا أنه يسير نحو ما فيه الخير والمصلحة! وفي هذا يقول القرآن الكريم:

(١) سورة التوبة، الآيات ٧٥ - ٧٧، وقصة ثعلبة مذكورة بالتفصيل في الدر المنثور للسيوطي ٣: ٤٦٧.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾[١].

ولا يعدم المرء في الحياة من حوله أمثلة لأناس يرتكبون بعض المعاصي ويأتون بعض المحرّمات الشرعية لأنّ الهوى جعلهم يرون في ذلك إيجابيات معيّنة، تضخمت في نفوسهم حتى جعلتهم يستصغرون الشرع الإلهي ويجرؤون على مخالفته. فثمة من يرى في الاستماع للغناء راحة نفسية عظيمة لا ينبغي التفريط بها في حال من الأحوال، وهناك من يزعم أنّ الاختلاط المحرّم بين الجنسين بات ضرورة يتطلبها العصر، وأنّ الأحكام الشرعية المتعلقة بحجاب المرأة وزينتها وقوامة الزوج ونصيب الأنثى من الميراث وغيرها، هي أحكام لوقتها، وما عادت صالحة لهذا الزمان. ولا تغيب عن المتابع الدعواتُ المشبوهة التي تنادي بإبعاد الشرع الإسلامي عن المجالات الاقتصادية والسياسية والتشريعات القانونية!

(١) سورة محمد، الآية: ١٤.

٣ - قد تكون شدة تأثير الهوى راجعةً إلى ضيق نظرة كثير من الناس الذين لا يرون إلا اللذائذ الدنيوية وحدها، فهي - على الرغم من كونها قليلة زائلة - شغلهم الشاغل وهمّهم الأعظم، من دون أن يلقوا بالًا أو اهتمامًا باللذائذ الأخروية العظيمة الباقية، مع أنهم من المفترض فيهم كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر!

يروى عن الزاهد المعرف شقيق البلخي أنه دخل يومًا على هارون الرشيد، فسأله: أنت شقيق الزاهد؟ فأجابه: أنا شقيق، أما الزاهد فهو أنت! تعجّب هارون من هذا الجواب، فسأله: كيف ذلك؟ هنا أجاب شقيق بكلمة مؤثرة بليغة كانت كفيلة بتنبيه هارون إن كان ممن ينتبه: «لأني زهدت في الدنيا وتركتها، وما تكون الدنيا؟ فإنها حقيرة ما تعادل جناح بعوضة، وأما أنت فزهدت في الجنة وحورها وقصورها وتركتها، فهمّتك أعلى من همّتي»[١].

٤ - قوة الهوى في النفس تتناسب تناسبًا عكسيًا مع

(١) لآلئ الأخبار، التوسيركاني، ٥: ٤٧٣.

قوة الإيمان؛ لذا يكون ضعف الإيمان عند الإنسان من أهم أسباب قوة الهوى في داخله، فكلما ابتعد أحدنا عن ربه وضعفت صلته به وارتباطه بالإيمان به ازدادت سطوة الهوى وجبروته وسلطانه على وجدانه. في حين أنّ المؤمن الحقيقي بالله تعالى لا بد أن يخشاه ويخاف مقامه، وهذا يستلزم أن يتحكم في نفسه وينهاها عن الهوى، فيقوده هذا كله إلى السعادة الأبدية الحقيقية:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

٥ - لربما تكون عبودية الإنسان لهواه ناتجة من ضعف إرادته، بألّا تكون المشكلة في إيمانه كما تقدم سابقًا، بل تكون المشكلة، في حقيقة الأمر، راجعة إلى ضعف الإرادة التي ينبغي لها أن تجعل الإنسانَ منصاعًا لما يقتضيه إيمانه. وكثيرًا ما يمكن أن تلحظ في أي مجتمع نماذج لأناس يؤمنون بشيء، وتجرّهم أهواؤهم

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ - ٤١.

إلى خلاف ذلك الذي يؤمنون به، نتيجة ضعف عزائمهم وإراداتهم، وصدق المتنبي قديمًا إذ قال:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ

وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

والحقّ أنّ القضية هنا ذات اتجاهين متبادلين، فقد يكون ضعف الإرادة سببًا في اشتداد الهوى، وقد تكون القضية بالعكس من ذلك، بأنْ يكون الهوى الشديد داعيًا إلى ضعف الإرادة والعزم، مثلما روي عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من قوي هواه ضعف عزمه»[١].

وأيًّا ما كان الأمر، فإنّ المؤمن مطالَب بتقوية إرادته وعزيمته، حتى لا يترك للهوى سلطانًا عليه، بل يكون حينذاك متشبهًا بالملائكة الذين وصفهم الإمام علي عليه السلام بقوله: «لا تعدو على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات»[٢]، ومقتديًا

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٨٥.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٩١ المعروفة بـ«خطبة الأشباح». ويقال في اللغة: «انتضلت الإبل» أي رمت بأيديها في السير مسرعةً.

بالمرسلين الذين وصفهم علي عليه السلام أيضًا قائلًا: «ولكنّ الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، وضعفةً فيما ترى الأعين من حالاتهم»(١).

التعامل الإسلامي مع الحالة:

يسعى الإسلام بكل جوانبه العَقَدية والتشريعية والخلقية إلى بناء شخصية الإنسان المسلم بنحوٍ يكون فيه متحررًا من عبادة الهوى، وبعيدًا عن سطوة غلبته عليه، ويظهر هذا السعي الإسلامي في الأمور المهمّة الآتية:

١ - تذكير الإسلام الإنسانَ بأنه مرتبط مع ربه بعهد يقتضي عدم عبادة الشيطان والإخلاص العبادي لله وحده:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٢).

وإذا كان الإنسان مؤمنًا بربه حقًا فإنّ من الواجب عليه

(١) نفسه، الخطبة ١٩٢.
(٢) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

عقلًا أن يراعي كل عهوده، لا سيما ما يرتبط منها بربه سبحانه، فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما أيقن بالله من لم يرعَ عهوده وذممه»[١].

والعقلاء كلهم مجمعون على أنّ من القبيح بالمرء أن يكون متصفًا بصفة خيانة العهد، فما أقبح به، إذًا، أن يتصف بهذه الصفة في نطاق علاقته بربه تعالى!

٢ - لئن كان من أسباب سطوة الهوى على الإنسان أنه يزيّن له اتّباعه كما تقدم، فقد سعى الإسلام لأنْ يسير بالإنسان في الاتجاه المعاكس لهذا التزيين، بأنْ بيّن له أنّ اتّباع الهوى لن يقوده إلا إلى الخسارة والسقوط، فمن هذا مثلًا ما روي عن الإمام علي عليه السلام من قوله: «إياك وطاعة الهوى فإنه يقود إلى كل محنة»[٢]، وقوله عليه السلام كذلك: «الهوى أسّ المحن»[٣].

لقد تقدمت في التاريخ حالات غير قليلة لأفراد وأمم

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٢٠١.
(٢) نفسه ١٠: ٣٧٣.
(٣) نفسه.

كان اتّباع الهوى السبب الرئيس في سقوطهم وفشلهم، فمن هذه الحالات قصة ذلك الإنسان الذي وصفه القرآن بأنه أوتي آيات الله، لكنه مع ذلك لم ينجُ من الفشل الذريع والانحطاط الوخيم حينما أسلس قياده لهوى نفسه وطاعة شيطانه:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1].

وحسبُ المرء أن يجيل نظره، في الوقت المعاصر، إلى الأمم والشعوب الغارقة في عبادة أهوائها والسير وراء ملذاتها الدنيوية الحسية، ليعرف النتائج والآثار الخطيرة المترتبة على ذلك كله: من انحلال خلقي، وتفكيك للأسر والعلاقات الاجتماعية السليمة، وشيوع للجرائم والسرقات، وضياع للذمم والأمانات، واعتداءات على

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥- ١٧٦. الرجل المذكور تسميه الأخبار «بلعم بن باعورا»، وتذكر أنه كان رجلًا عابدًا معروفًا معاصرًا للنبي موسى عليه السلام. وقصته المفصلة مذكورة في كتب كثيرة منها مثلًا «الميزان في تفسير القرآن» ٨: ٣٣٧.

الشعوب والأمم الأخرى والسعي لنهب خيراتها . . . والقائمة تطول وقد لا تنتهي.

٣ - سلب الإسلام من الإنسان ذريعة كبرى لاتّباع هواه، حين جعل دائرة الحلال أوسع بكثير من دائرة الحرام، فلا يستطيع أحد أن يحتجّ لاتّباعه هواه بأنه ما وجد عن الحرام محيصًا، وأنه لو عثر له على بديل لما سلك سبل المعصية.

لقد خلق الله سبحانه هذا الإنسان عارفًا بكل احتياجاته ونقائصه، وقد تكفل له في شرعه الحنيف بتحقيق كل ما يلزمه بالطريقة المثلى والأسلوب الأفضل، وبعد هذا نهاه عن الطرق الملتوية والأساليب المنحرفة التي ليست إلا ضارة ومفسدة، بعد أن أغناه عنها بدائرة الحلال الواسعة. وفي هذا المعنى روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «ما نهى الله سبحانه عن شيء إلا وأغنى عنه»[1].

(١) ميزان الحكمة ٢: ٣٧٢.

وما دامت في دائرة الحلال مندوحة للمرء عن الولوج في دائرة الحرام، فلا معنى، والحال هذه، أن ينقاد لهواه ويعصي أمر مولاه الذي وفّر له كل ما يلزمه ويحتاج إليه في حياته من طريق الحلال.

٤ - نبّه الإسلام الإنسانَ على أنه خاضع لمجموعة من الرقابات في حياته:

أ - فهناك رقابة جوارحه عليه، فهي كلها تشهد على أقواله وأفعاله، وستؤدي هذه الشهادة بوضوح ودقة يوم القيامة: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

ب - وثمة رقابة الملكين لكل إنسان منّا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[2].

ج - وأيضًا لا بد أن يكون المؤمن رقيبًا على ذاته، محاسبًا نفسَه، بلا تهاون ولا توانٍ ولا تراخٍ، فعن الإمام

(١) سورة يس، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الانفطار، الآيات: ١٠ - ١٢.

علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «جاهد نفسك وحاسبها محاسبة الشريك شريكه، وطالبها بحقوق الله مطالبة الخصم خصمه، فإنّ أسعد الناس من انتدب لمحاسبة نفسه»[١].

د - والرقابة الأهمّ، أولًا وأخيرًا، هي الرقابة الإلهية، وعنها يقول الإمام علي عليه السلام في دعائه: «وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم...»[٢].

إنّ خضوع الإنسان لكل هذه الرقابات المهمة لجدير بأنْ يمنعه منعًا أكيدًا من السير في طريق الهوى الذي يقوده بعيدًا عما يريده الله تعالى منه. لكنّ أمر هذا الإنسان لعُجاب حقًا؛ إذ يمنعه وجود آلة مراقبة صغيرة وضعها إنسان مثله من ارتكاب أية مخالفات للقوانين الوضعية، ولا يمنعه يقينه بوجود كل هذه الرقابات الإلهية المشددة

(١) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي، ١: ١٤٦.
(٢) من الدعاء المعروف بـ «دعاء كميل».

من التجرؤ على الله وأحكامه، خضوعًا لأمر هواه واتّباعًا لما تقتضيه عبادته.

٥ - تعدّ قضية الإيمان بالمعاد، وهي من الأصول الاعتقادية الأساسية في الدين، من أهم الضمانات التي يمكن للدين بها أن يضبط سلوك الإنسان ويبعده عن طاعة هواه. ذلك أنّ المعاد معناه الإيمان بأنّ هناك نعيمًا إلهيًا خالدًا لا مثيل له في الدنيا ينتظر الإنسانَ الصالح الذي حارب هواه واتّبع أمر مولاه، وأنّ هناك، في المقابل، جحيمًا خالدًا أيضًا ينتظر من حرمه هواه من طاعة ربه وسلوك سبيله. ولا شك، حين يقف المرء بين هذين الخيارين، أنّ عقله سيدعوه إلى محاربة هواه وعدم عبادته، مهما بلغت إغراءات هذا الهوى وشدة جذبه له، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الجنة حُفّت بالمكاره، وإنّ النار حُفّت بالشهوات، واعلموا أنه ما من طاعة الله شيءٌ إلا يؤتى في كره، وما من معصية الله شيء إلا يؤتى في شهوة، فرحم الله امرأً نزع عن شهوته، وقمع هوى

نفسه»[١]. وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لن يحوز الجنة إلا من جاهد نفسه»[٢].

والحقّ أنّ العبد إذا اشتد به الشوق إلى الجنة والخوف من النار فإنّ ذلك كفيل بصرفه عن طاعة هواه، بل لربما يصرفه أيضًا عن التفكير في نفسه مطلقًا، فهذا الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه يُروى أنه «بكى من خشية الله عز وجل حتى اشتكى بصره، فقيل له: يا أبا ذر، لو دعوتَ الله حتى يشفي بصرك، فقال: إني مشغول، وما هو أكبر همي. قالوا: وما يشغلك عنه؟ قال: العظيمتان الجنة والنار»[٣].

(١) ميزان الحكمة ٢: ٩٩.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ١٠: ٣٦٢.

الإضلال على علم:

ونعود إلى الآية المباركة، محل كلامنا، لنجدها بعد مقطعها الأول المتعلق بعبادة الهوى تقول: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وهنا شقّان للكلام ينبغي لنا التوقف عندهما:

فأما الشقّ الأول فهو الحديث عن الإضلال الإلهي للإنسان، فما معناه؟ وألا يلزم من ذلك القول بأنّ هذا الإنسان قد أجبره الله إجبارًا على سلوك طريق الضلال؟ ثم ما معنى أن يعاقبه الله على ذلك إذا كان هو الذي أجبره عليه؟

أجاب علماء العقيدة والتفسير عن ذلك ببيان أنّ ما ذكرته الآية الشريفة لا يستلزم القولَ بالجبر، وأبرزوا في ذلك وجوهًا عدة، أهمها:

أ - المعنى المقصود هو أنّ الله تعالى أوكلَ الإنسانَ المتّبع لهواه إلى نفسه، فلم يتدخل بقدرته ليوقفه ويمنعه عن اتّباع الهوى، بل تركه ليفعل ما يريده بكامل اختياره، فالإضلال الإلهي هنا معناه عدميّ سلبيّ، أي أنه بمعنى عدم المنع التكويني من جانب الله تعالى.

ب - الإنسان المطيع لهواه هو الذي أوقع نفسه في الضلال، بسوء اختياره، وإنما نُسب الإضلال إلى الله لأنّ الله تعالى هو الذي أوجد قانون السببية وخَلَقه وجعله حاكمًا في الحياة.

الإضلال، بناءً على هذا الوجه، له معنى وجودي، بمعنى كونه سبحانه موجد قانون السببية الذي يقتضي أن يقع الإنسان العابد لهواه في الضلالة مع أنّ هذا الإنسان هو الذي اختار سبب وقوعه في الضلالة ولم يكن مجبورًا عليه. فالحالة هنا تشبه حالة أحدنا إذا أشعل نارًا وأحرق فيها يده اختيارًا، فهنا يرى العقل أنّ هذا الإنسان هو الذي أحرق يده بكل إرادته واختياره، ومع هذا يمكن أن يُنسب الإحراق إلى الله تعالى لأنه هو الذي خلق النار المتصفة بالإحراق.

وأما الشق الآخر فهو قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وفيه إشارة قرآنية لطيفة إلى أنّ هذا الإنسان قد وقع في الضلال وعبادة الهوى مع علمه التام بأنه يسير في طريق الضلال الذي لن يعود عليه إلا بالخسران المبين، وهذا معناه أنّ

العلم وحده لا يكفي لضمان الاهتداء، فلربما يكون المرء حاملًا للعلم من دون أن ينتفع به، فيكون مَثَله، في نظر القرآن، كمَثَل الحمار الذي لا ينتفع بالكتب التي يحملها على ظهره: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «خير العلم ما نفع»[2]، وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «خير العلوم ما أصلحك»[3]. وحقًا هي كارثة كبرى أن يكون الإنسان عالمًا بكثير من المعلومات، لكنه، مع هذا، يسلك سلوك الجاهلين في حياته كلها، أو في بعض جوانبها في أقل تقدير، فتكون حالته كحالة أولئك القوم الذين حدّثنا عنهم عمار بن ياسر رضي الله عنه:

«بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حي من قيس أعلّمهم

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.
(٢) ميزان الحكمة ٦: ٥٢٩.
(٣) نفسه.

شرائع الإسلام، فإذا قومٌ كأنهم الإبل الوحشية، طامحة أبصارهم، ليس لهم همّ إلا شاة أو بعير. فانصرفت إلى رسول الله ﷺ فقال: يا عمار ما عملتَ؟ فقصصتُ عليه قصة القوم وأخبرته بما فيهم من السهوة، فقال: يا عمار، ألا أخبرك بأعجب منهم؟ قوم علموا ما جهل أولئك ثم سهوا كسهوهم»[1].

الختم والغشاوة والهداية:

وتنتهي الآية إلى القول: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهنا أيضًا جانبان مهمان:

فأما الجانب الأول فهو الحديث عن كون الله تعالى قد ختم على سمع هذا الإنسان العابد لهواه وعلى قلبه، وجعل على بصره غشاوة، فلا يسمع الحق ولا يراه. وقد

(١) نفسه ٦: ٤٩٨.

ذكر العلامة الطباطبائي أنّ هذا هو كالعطف التفسيري لقوله تعالى المتقدم: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فهو كالبيان لكيفية الإضلال المشار إليه.

إنّ هذا الكلام ليعيد إلى أذهاننا ما تقدم الحديث عنه من أنّ من أهم أسباب عبادة الإنسان للهوى هو كون الهوى يُعمي صاحبه ويصمّه عن آثاره السلبية الناجمة عن اتّباعه له. ثم إنّ نسبة الختم وجعل الغشاوة إلى الله سبحانه هي كنسبة الإضلال إليه فيما مضى، من جهة شبهة الجبر والإجابة عنها، فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام في الموضوع نفسه.

وأما الجانب الأخير فهو المتعلق بالهداية، هذه التي لا تكون من نصيب أي إنسان إلا بأمر من الله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهنا استفهام إنكاري يُبرز أمامنا الحقيقة ناصعةً واضحةً: نفي إمكان الهداية من بعد الله، أي نفي أن يكون في وسع الإنسان الحصول على الهداية المبتغاة من غيره سبحانه، إذ لا هادي سواه. وهذه الحقيقة ألحّ القرآن على إبرازها في آيات متعددة

منه، نظرًا لأهميتها ومركزيتها في الفكر العقدي الديني، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٢].

نعم، إنّ هذا الإنسان ليحتاج دومًا إلى التذكير بمدى حاجته إلى ربه في هذا المجال، إذ لا سبيل للاهتداء، ولا طريق إلى النجاة، إلا بإرادة منه سبحانه وتوفيق، ولولا ذلك لما استطاع هذا الإنسان الاهتداء، ولا بلغ برّ النجاة، مهما زاد علمه وارتفع في الدنيا شأنه ومقامه. ورد في الحديث القدسي: «قال الله جل جلاله: عبادي، كلكم ضالّ إلا من هديته، وكلكم فقير إلا من أغنيته، وكلكم مذنب إلا من عصمته»[٣].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣٣.
(٣) ميزان الحكمة ١٠: ٣٢٧.

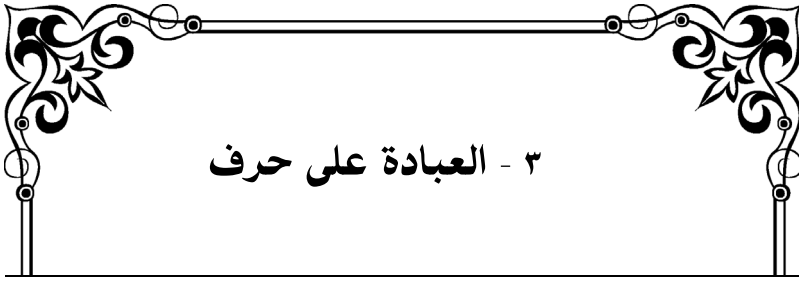

٣ - العبادة على حرف

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾(١).

نقلت الأخبار عن ابن عباس أنه قال: «كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسْلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا: إنّ ديننا هذا صالح فتمسّكوا به، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا:

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾»[١].

إنهم أناس يربطون عبادتهم لربهم بتحقّق مصالحهم الدنيوية المادية الضيقة، فإن رأوها وافرة عدّوا دينهم حقًا وصلاحًا، وإن كانت الأخرى كان الدين في أنظارهم باطلًا وفسادًا، هؤلاء استحقوا أن يصفهم القرآن بأنهم ممن ﴿يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، وقد ذكر المفسرون تفسيرات عدة لهذا التعبير القرآني، أهمها:

أ - المقصود بكون الإنسان ﴿عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ هو أنه على حافة وطرف، فحال هذا الإنسان الذي تصفه الآية المباركة هو كحال الواقف على حافة جبل مثلًا، لا يستطيع الاستقرار، بل يظل مترنحًا متمايلًا على الدوام.

ب - المراد من ﴿عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ أنه على جانب واحد دون غيره، أي أنه لا يحيط بكل الجوانب التي يقتضيها الإيمان بالله تعالى.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٤: ٣٥٥.

ج - الحرف المعنيّ في ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ هو هذا الصوت المسموع الذي يصدر من الإنسان حين يتكلم، فالمقصود هو أنّ إيمانه إنما هو لقلقة لسان فقط، لا يتجاوزها إلى العمق الوجداني والإحساس القلبي.

هذا الإنسان العابد على حرف يتصف بأنّ حاله في وقت الخير يختلف عن حاله في غيره: ففي حال الخير تراه مطمئنًا هانئ البال سعيدًا، لكن إن اختلف عنده الحال فإنك تجده ينقلب على وجهه، وهذه كناية عن التراجع والارتداد عن الحق.

ويُلحظ هنا أنّ إصابة الخير، في الآية، قوبلت بإصابة الفتنة، ولم تقابل بإصابة الشر، وفي ذلكم دلالة، كما ذكر المفسرون، على أنّ هذا الذي يحسبه هذا الإنسان شرًا ما هو إلا اختبار وامتحان له. وتُختتم الآية ببيان أنّ من كانت هذه حالته فهو خاسر خسرانًا مبينًا لا محالة، كيف لا؟ وقد ضيّع دنياه وآخرته، وخسرهما جميعًا.

وبعد، ففي الآية الشريفة مجموعة من الفوائد المهمة:

الفائدة الأولى:

عبادة الله ﷻ لا تكون حقيقية، فاعلة في إيصال الإنسان إلى سعادته في الدنيا والآخرة إلا إذا كانت على النهج الذي يريده الله سبحانه، أي أن تكون منطلقة من منطلق الإيمان الوجداني الحقيقي الصادق، لا أن تكون عبادة صورية شكلية على معنى من المعاني التي تقدّم بيانها لقضية العبادة على حرف، بأن تكون عبادة مقرونة بالتذبذب وعدم الاستقرار على حال من الاطمئنان النفسي بذكر الله، أو تكون عبادة إنسان لا يرى من العبادة إلا جانبها الشكلي الأدائي الخارجي، دون أن تسعه الإحاطة بالجوانب الأخرى المهمة الكثيرة التي يقتضيها الإيمان، أو تظل العبادة مجرد ألفاظ يرددها اللسان دون أن يعي القلب منها شيئًا أو يتأثر بها ولو قليلًا.

إنّ العبادة إنْ لم تكُ منطلقةً من الإيمان العميق الفاعل، لن تكون عبادة إلا في مظهرها؛ لأنّ الإيمان الحقيقي، حين يكون حقيقيًا بالفعل، لا ينى يترك أثره في

وجود الإنسان وكيانه كله، والعكس بالعكس إن كان هذا الإيمان غير حقيقي، فعن سيد الخلق محمد ﷺ أنه قال: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن الإيمان ما خلص في القلب وصدّقته الأعمال»[١]، وعنه ﷺ أيضًا: «الإيمان معرفة بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان»[٢].

الفائدة الثانية:

يستحق هذا التعبير القرآني البليغ والتصوير البياني الدقيق الذي استهلت به الآية المباركة أن يتأمله المرء طويلًا بكامل وعيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ ليكتشف إلى أي مدى بعيد يمكن لحب الدنيا واستيلائه على القلب أن يرمي بهذا الإنسان بعيدًا عن العبادة الحقيقية والإيمان الصادق!

(١) ميزان الحكمة ١: ٣٠١.
(٢) نفسه.

إنّ الآية تحدّثنا عن نموذج من الناس - قد لا يكون نادرًا في كل زمان - لا يعرف الله إلا من منظور مصالحه الدنيوية التي يتعلق قلبه بها بشدة، فإنْ كان الإيمان يستدعي قضاء هذه المصالح كان فيه خير، وإلّا فلا قيمة له! فالدنيا هي الأساس، وهي الأصل، نعم وهي مقياس الحق والباطل!

من هنا، لا ينبغي لأحدنا أن يعجب حينما يقرأ أو يستمع إلى مدى قوة التحذيرات الدينية من حب الدنيا والتعلق القلبي بها، فهي في واقعها تحذيرات تسعى إلى حمايتنا من الخسران المبين، خسران الدنيا والآخرة. ورد في الحديث النبوي الشريف مثلًا: «أكبرالكبائر حب الدنيا»[١]، وفي حديث الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «إنك لن تلقى الله سبحانه بعمل أضرّ عليك من حب الدنيا»[٢].

(١) نفسه ٣: ٢٩٤.
(٢) نفسه ٣: ٢٩٥.

الفائدة الثالثة:

تحدثت الآية الشريفة عن خسران الإنسان الذي تكون عبادته مرتبطة بغرض دنيويّ، مثل هذا الذي يرائي الناس، فيحسّن عبادته ويزيدها بمرأى منهم ومسمع كيما يظفر باستحسانهم وإشادتهم، أو ذاك الذي يعبد لكونه يعلم أنّ عبادته ستكون طريقًا له لنيل بعض معالم الوجاهة الاجتماعية والمناصب الرفيعة بين الناس. لكن، ماذا عن ذلك الإنسان الذي تكون عبادته لمنفعة أخروية؟ فكثيرون يعبدون الله تعالى لأنهم يحبون الحصول على الجنة ونعيمها الخالد، أو لكونهم يخافون النار وعذابها المهول، فهل في عبادتهم أي إشكال من المنظور الشرعي؟

بعض عبارات أهل العرفان تدل على أنّ العبادة الحقيقية الخالصة من الشرك هي تلك التي تكون متمحضة لوجه الله تعالى، فلا تشوبها أية شائبة من أية نية أخرى، ولو كانت هي نية رجاء الجنة أو خوف النار، ومن ثَمّ

فإنّ العبادة لأجل المنفعة الأخروية هي نوع من أنواع الشرك. وقد أوجدت هذه العبارات العرفانية وأمثالها توهمًا عند كثير من الناس الذين اطّلعوا عليها بأنّ عباداتهم، إذًا، باطلة وغير مقبولة. غير أنّ سماحة المرجع الديني الكبير السيد أبا القاسم الخوئي (قدس سره الشريف) أوضح، حين سُئل عن الموضوع، أنّ البطلان إنما هو فيما إذا غاب قصد التقرب إلى الله عن نية العابد، ولم يكن عنده سوى قصد الجنة أو خوف النار، وهذا ليس ما يحصل عند غالب الناس، فهم قاصدون التقرب إلى ربهم، وليس قصد الجنة أو خوف النار إلا متفرعًا عن أصل قصد التقرب، وعندئذ لا شك في كون عباداتهم صحيحة[١].

ومع هذا، فإنّ الأفضل، بلا ريب، أن يحاول العبد أن يسمو بمستوى عباداته من جهة النية، فلا يربطها بالجنة

(١) يراجع نص جواب سماحته في كتاب «صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات»، إعداد موسى العاملي، ٢: ٤٥٤.

أو بالنار، بل يجعلها الله تعالى وحده، فهو المقصود بالعبادة والمستحق لها حتى إذا لم يخلق الجنة والنار.

إنّ هذا المستوى الرفيع السامي هو الذي جعل الإمامَ عليًا عليه السلام يقول عن عبادته: «إلهي ما عبدتك خوفًا من نارك، ولا طمعًا في جنتك، ولكني وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك»[١]. ومن الجليّ أنّ الإمام في كلمته العظيمة هذه إنما يعبّر عن كون ارتباطه بربه أعمق وأسمى من الجنة والنار، فهو ارتباط من يعبد الله سبحانه لكونه هو الخالق المنعم المتفضّل، أي لكونه أهلًا للشكر، وليس لكونه مثيبًا ومعاقبًا! ولا تعني هذه الكلمة على الإطلاق أنّ صاحبها زاهد في الجنة ولا يخاف النار ولا يهتم بالتوقّي منها، كما زعم بعض سقيمي الفهم الذين ردّ عليهم العلّامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ببحث مفصّل جاء فيه: «وأقول لقد تأملت في هذا الكلام طويلًا، وقلبته على وجوهه، فما رأيت فيه إلا ما يدخل في خالص معنى العبودية والتوحيد.

(١) www.haydarya.com

وليس عجبي ممّن يقول هذا الكلام تعبيرًا عن دينونته الخالصة لله بالعبودية، ولكن عجبي ممّن ينكر هذا الكلام وينسب صاحبه إلى الشطح أو الابتداع...»[١].

الفائدة الأخيرة:

في نهاية الآية الكريمة إيقاظ ما بعده إيقاظ لكل من كان له قلب: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، وأية خسارة أفدح من أن يخسر أحدنا الدنيا والآخرة معًا؟ خسارة الدنيا هي أن يضيّع المرء رأس ماله الذي كان يتوجب عليه عقلًا أن يستثمره في منفعته وصلاحه، لكنه يتلفه فيما لا ينفع، بل فيما يضرّ ويوجب الضياع. نعم، يتلف العمر والصحة والمال وكل ما كان في وسعه أن يستفيد منه وينتفع. ثم إنّ خسارة الآخرة أفدح وأقسى، حين يخسر النعيم الإلهي المقيم ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك

(١) منتدى الأصلين (www.aslein.net).

رفيقًا، ليواجه العقاب الإلهي الذي لا يجرؤ على تصوّر حقيقته، فكيف بالوقوع فيه؟ وعن مثل هذا الإنسان قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «العجب ممن يخاف عقوبة السلطان وهي منقطعة، ولا يخاف عقوبة الديّان وهي دائمة»[١].

إنّ هذا الخسران المبين في الدنيا والآخرة ينتظر الإنسانَ الذي يجعل من مصالحه الشخصية أساسًا لعبادته ربه، فيسير في طريق العبادة والعبودية ناظرًا إلى الناس الآخرين من حوله ورضاهم عنه! ولا تتقبل نفسه تطبيق الأحكام الشرعية الإلهية إلا تلك التي تراها هي من منظورها الخاص متناسبة مع مصالحها الدنيوية ومحققة لها مثلما تشتهي وتبتغي، مع أنّ الأحكام الشرعية هي، في واقعها، كلها ترمي إلى تحقيق المصالح الواقعية الحقيقية للناس، ولا غاية لها سوى إيصال الحياة الإنسانية إلى المستوى السامي اللائق بها، المحقق لكمالها، والموجب لرضا ربها.

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٣٨.

ليكن العاقل، إذًا، على حذر من أن يجعل لدنياه كل هذا الحضور القوي في حياته حتى لَتتطاول إلى عباداته وعلاقته بالمعبود، وليستحضر دومًا كلمة الإمام علي عليه السلام المعبّرة الدالّة التي تختزن عمقًا تعجز كلمات غيرِه عن التعبير عنه: «الدنيا حلم، والآخرة يقظة، ونحن بينهما أضغاث أحلام»[1].

(١) نفسه، الحكمة ٧٣٧.

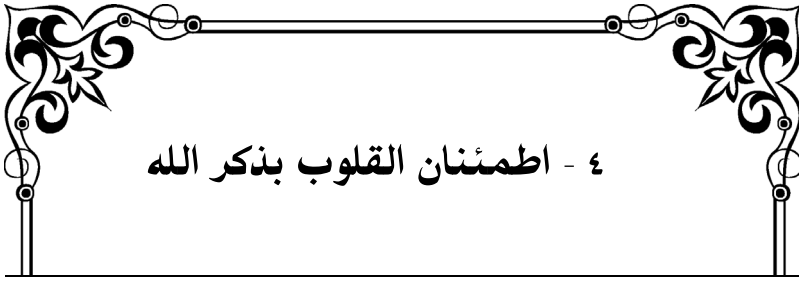

٤ - اطمئنان القلوب بذكر الله

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1].

ترتبط هذه الآية الكريمة، فيما ذكر المفسرون، ارتباطًا مباشرًا بالآية التي سبقتها: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾[2]. فقوله سبحانه هنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جاء لتوصيف ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ هناك، فالمنيبون إلى ربهم - وهم الراجعون إليه تعالى - يتصفون بأنهم مؤمنون تطمئن قلوبهم بذكر الله.

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٧.

وقد ذهب العلّامة الطباطبائي إلى أنّ قوله ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هو عطف تفسير على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بمعنى أنّ الإيمان الحقيقي هو الذي يتجاوز الجانبَ الفكري إلى الجانب القلبي الوجداني[1]. وربما كان الأوفق لأداء هذا المعنى أن يقال: إنّ العطف هنا هو عطف النتيجة على السبب، فالإيمان هو سبب الاطمئنان بذكر الله، والاطمئنان هو نتيجة الإيمان، وليس مرادفًا له مفهومًا أو مطابقًا له مصداقًا حتى يقال إنّ العطف هنا هو عطف تفسير.

ثم إنّ ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فسّره بعضهم بآيات القرآن، وفي بعض الروايات ما يدلّ على أنّ المراد هو النبي محمد ﷺ بوصفه مذكّرًا بالله تعالى، لكن أغلب المفسرين أخذوا بالإطلاق الموجود في التعبير، فذهبوا إلى أنّ المراد هو ما يعمّ الذكر اللفظي، فيكون المراد، على هذا، هو مطلق الخطور في البال بأي سبب تحقّق.

السؤال المهم الذي يجدر التوقف عنده هو: لماذا

(١) الميزان في تفسير القرآن ١١: ٣٥٤.

كان الإيمان بالله تعالى وذكره سبحانه سببًا للاطمئنان القلبي؟ أية علاقة تربط بين الاطمئنان الذي يشعر به القلب الإنساني وبين الحضور الإلهي فيه إيمانًا وذكرًا؟ علمًا أنّ هذه العلاقة ليس القول بها مقصورًا على المسلمين وحدهم، بل هي معروفة ومسلّمة عند المتخصصين بأحوال النفس البشرية من غير المسلمين أيضًا، فقد أكّد عالم النفس السويسري الشهير كارل جوستاف يونغ (Jung) مثلًا أنّه وجد في نهاية التحليلات النفسية التي قام بها أنّ معظم مرضاه إنما أصابهم المرض بسبب افتقادهم للشعور بالإيمان الديني[1].

يمكن، في مقام الإجابة عن السؤال، ذكر الأمور الآتية:

١ - الإيمان بالله وذكره يرسّخان في قلب الإنسان الغايةَ من خلقه ووجوده، فينجو هذا القلب من كل ذلك القلق الوجودي الذي يمكن أن يعصف به إن ظلّ حائرًا لا

(١) الإسلام والعلاج النفسي الحديث، د. عبد الرحمن عيسوي، ص ٢٣١.

يهتدي إلى سبب وجوده ولا إلى أصل مبدئه ومنتهى مسيره، فيهيم في أودية «اللا أدرية»، وتتقاذفه أمواج الغربة الوجودية والفراغ النفسي القاتل والحيرة المؤدية بالنتيجة إلى موت القلب؛ لذا نقرأ في الرواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: (فيما ناجى الله به نبيّه موسى): «يا موسى، لا تنسني على كل حال، فإنّ نسياني يميت القلب»[١].

إنّ من يؤمن بوجود الله تعالى بعقله يدرك أنّ ثمة مبدأً وغايةً للخلقة، لكنّ من يذكره سبحانه يقوده هذا الذكر إلى تعميق ما يدركه بعقله في قلبه ووجدانه، فيشعر هذا القلب بطمأنينة خاصة تحوطه حينما يثق، بكل أحاسيسه ومشاعره، بأنه لم يوجد عبثًا ولا صدفة، بل وُجد لغاية شريفة عظيمة هي سلوك طريق العبادة والعبودية للوصول إلى النعيم الإلهي الخالد: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

---

(١) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي، ١: ٢٢٩.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

٢ - حين يقوى ارتباط المرء بربه، إيمانًا وذكرًا، يقلّ حرصه على الدنيا وتعلّقه بطيّباتها؛ ذلك أنه حينئذ سيتذوق اللذة الحقيقية، لذة ذكره سبحانه، وستربطه هذه اللذة بالسماء، بالأهداف السامية، بالنعيم الأخروي، وإذ ذاك سيرى الدنيا على حقيقتها، مثلما رآها رسول الله ﷺ فقال: «يا علي، إنّ الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»[١]، ورآها كذلك الإمام علي عليه السلام فقال: «من كانت الدنيا همّه، كثر في القيامة غمّه»[٢].

إنّ كثيرًا من القلق الذي ينتاب البشر ناجم عن التعلّق الشديد بهذه الحياة الدنيا ولذائذها وزخارفها والتكالب المتواصل المحموم عليها. ولا غرو أنّ القلب الذي يسلم من حب هذه البهارج الزائلة أو، في أقل تقدير، يكون في مأمن من طغيان هذا الحب وانفلاته المطلق من عقاله ينجو من كثير من ذاك القلق الذي يحكم حياة البشر بوضوح في كل زمان ومكان.

---

(١) قصار الجمل ١: ٢٠٦.
(٢) نفسه ١: ٢٠٧.

٣ - يتزود الإنسان بقوة وجدانية عظيمة وإحساس هائل بالعزة إذ يؤمن بربه ويذكره، فهو بهذا يرتبط بمصدر العزة وأصل القوة والعظمة والشأن في هذا الوجود بأسره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(١).

وهو بهذا يستشعر بكل كيانه وأحاسيسه أنه ليس ذلك المخلوق الوحيد الضعيف الذي يتوجب عليه أن يقف بمفرده في مواجهة الطبيعة والأعداء والبشر الآخرين وكل التحديات التي يمكن أن تواجهه في حياته الملأى بالمخاطر والصعوبات، بل هو داخل في ولاية الله تعالى الذي بيده مقاليد كل الأمور يتصرف فيها كيف يشاء: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٢). والنتيجة هي أنّ الارتباط بالله تعالى يمنح المؤمنَ شعورًا خاصًا بالأمان، ولا شك أنّ هذا الشعور يضفي على قلبه اطمئنانًا فريدًا لا مصدر آخر له سوى الله جلّت قدرته.

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

٤ - أن يذكرالمؤمن ربه معناه أنه يسعى إلى التزلف إليه والتقرب منه، أي أنه يستحضر رحمته الواسعة التي كتبها على نفسه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[١]، تلك الرحمة التي قال عنها الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نشر الله رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته»[٢]. وليس ثمة من شك في أنّ استحضار القلب البشري للرحمة الإلهية يملؤه راحة نفسية عظيمة وإحساسًا عميقًا بالاطمئنان، شريطة ألّا يوقعه ذلك في هوّة الأمن من المكر الإلهي والتجرؤ على التعدي على حرمة أحكامه وشرعه.

وفي الآية دروس مهمة تجدر الإفادة منها:

الدرس الأول:

للارتباط الوجداني القلبي بالله سبحانه وتعالى أثر عظيم فاعل في حياتنا، فهذا الارتباط يحقق لنا الاطمئنان القلبي الذي هو

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢.
(٢) قصار الجمل ١: ٢٤٧.

الضالّة المفقودة التي يبحث الإنسان عنها بكل شغف وتوق في كل زمان، لا سيما في زماننا هذا الذي زادت فيه المنغصات والأمور المسببة للخوف، أعني الأمور التي يتسبب فيها الإنسان نتيجة طيشه وعبادته لشهوته وشيطانه حتى غدا القلق سمةً ملازمةً للعصر، وصار الاكتئاب يقتنص حتى الأطفال الأبرياء!

إنّ الارتباط بالله لا يصحّ أن يظل محصورًا في الإطار الفكري وحده، فللفكر مجال محدود لا يتجاوزه من مجموع مكوّنات الشخصية الإنسانية، وليس الفكر وحده بقادر على أن يلبي كل المتطلبات الضرورية لإيصال الإنسان إلى سعادته الحقة. وإنّ الذكر لا ينبغي له أن يتوقف عند اللسان فقط، بل لا بد أن يتعمق ويتوغل إلى داخل القلب، فيحقق له الاطمئنان والإحساس العميق بالأمان والراحة، وإذ ذاك يتذوق الإنسان بحق طعم السعادة، ويشعر بها تحتويه من كل جانب، وتنتشله من غياهب القلق وبراثن الشقاء. وليس هذا بغريب بعد أن يكون هذا الإنسان قد اختار جعل نفسه في طريق يحبه الله

ويحب من يسير فيه، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أكثر ذكر الله أحبه»[١]، وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «أحبكم إلى الله أكثركم له ذكرًا، وأكرمكم عند الله أتقاكم، وأنجاكم من عذاب الله أشدكم له خوفًا»[٢].

الدرس الثاني:

يستفاد من تقديم الجار والمجرور (بذكر الله) على متعلّقه الفعل (تطمئن) أنّ الذكر الإلهي هو السبب الوحيد المنحصر لاطمئنان القلب، فلا يمكن لهذا القلب أن يطمئن إلا بهذا الذكر، دون سواه، فتقديم ما حقه التأخير هو من طرائق القصر كما هو ثابت في البلاغة العربية.

لا معنى، إذًا، لاستجداء سبل الاطمئنان القلبي والاستقرار النفسي من الشرق أو الغرب، كما لربما يُلحظ

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٢١.
(٢) قصار الجمل ١: ٢٢٧.

عند مسلمين كثيرين، ولا قيمة لما يبتكره المبتكرون ويخترعونه من أساليب وممارسات تهدف إلى خلق الطمأنينة وزرع الراحة في القلوب، ما لم يكن ذلك كله مرتبطًا بالذكرالإلهي ومنبثقًا عنه في صورة من الصور.

إنّ شأن المسلمين لعُجاب، في حالات كثيرة، فقرآنهم يدلّهم على أنّ ذكر الله هو الطريق الذي عليهم أن يسلكوه إن راموا لأنفسهم اطمئنانًا ولقلوبهم سكينة وهدوءًا، لكنهم ينبذون ذلك وراء ظهورهم، أو لا يعطونه ما يستحقه من اهتمامهم في أقل تقدير، وتراهم ينعقون مع كل ناعق ينعق في شرق الأرض أو غربها، ويتمسكون بما تمليه عليهم عقول بشرية كعقولهم، تاركين ما دلّهم عليه العليم الخبير. ولو أنهم فاؤوا إلى عقولهم، أو فاءت هي إليهم، لعرفوا سبيلهم إلى الكرامة على الله، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه سُئل: من أكرم الخلق على الله؟ فأجاب: «أكثرهم ذكرًا لله، وأعملهم بطاعته»[1].

(١) قصار الجمل ١: ٢٢٩.

الدرس الثالث:

الذكر المطلوب، في الحقيقة، هو ذلك الذكر البنّاء الذي لا يُنسي الإنسانَ الخوفَ من الله تعالى، وبهذه الطريقة يجمع بعض المفسرين[١] بين الآية محل كلامنا التي تدل على أنّ الذكر الإلهي موجب لاطمئنان القلب وبين الآية الأخرى القائلة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢]، فلا يوجد تنافٍ أو تعارض بين الآيتين الكريمتين إذا نحن استوعبنا حقيقةً المراد القرآني من الذكر.

إنّ الذكر ليس يعني أن ينغمس اللسان في الأوراد والأدعية ويشتغل الجسد ببعض الممارسات الخارجية، سواء أكانت مشروعة كما في الممارسات العبادية المعهودة في الصلاة والصوم والحج مثلًا، أم كانت

(١) يراجع مثلًا ما ذكره صاحب التفسير الأمثل في الجزء السابع، عند تفسيره الآية محل الكلام.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢، وسورة الحج، الآية: ٣٥.

مبتدعة لا صلة لها بالشرع كالرقص مثلًا وغيره مما يمارس في بعض حلقات الذكر الصوفية. بل الذكر الحقيقي يعني الارتباط الواقعي الفعلي بالمذكور، أي بالله جلّ شأنه. ولا يكون هذا إلا بالارتباط بشرعه المقدس، والسعي إلى إطاعته وتطبيق أحكامه بحذافيرها دونما تلكؤ أو تباطؤ. وبذا يتحقق الذكر الحقيقي، وبه ينال أحدنا مقام الذاكرين، ويصل إلى جوهر الذكر وواقعه المطلوب، وهذا ما نصّ عليه الحديث النبوي الشريف: «من أطاع الله ﷻ فقد ذكر الله وإنْ قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن»[1].

الدرس الأخير:

الذكر الإلهي يمكنه أن يوصل الطمأنينة إلى كل القلوب، بلا استثناء، بدلالة الجمع المحلى بأل التعريفية

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٢٥.

(القلوب)، وهو يفيد العموم كما ذكر علماء أصول الفقه، فليس في الذكر الإلهي أي قصور من هذه الناحية أو عجز عن معالجة أي قلب من القلوب، لكن هذا مشروط - كما ذكر صاحب الميزان - بأن يظل القلب قلبًا بشريًا حقيقيًا، ما زال يحتفظ بالفطرة الإنسانية التي فُطر عليها.

وبناءً على هذا، المطلوب منّا إذا أردنا للذكر الإلهي أن يؤثر أثره ويؤتي أُكُله في إدخال الطمأنينة إلى قلوبنا، أنْ نحافظ على سلامة هذه القلوب، فلا نتوغل في المعاصي والذنوب حتى لا تغدو قلوبنا منكوسة أو عمياء، فلا تفلح بعدها أبدًا، إلا إذا تداركها ربها بتوفيق لتوبة حقيقية صادقة. فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله»[1].

ونظرًا لقابلية القلب البشري للانتكاس والتحجّر

(١) قصار الجمل ٢: ١٦٧.

والانغلاق عن الهدى، جاءت التوصيات الدينية المتكررة من المعصومين عليهم السلام بضرورة الاعتناء بهذا القلب والحرص على صفائه ونقاء فطرته، فمن ذلك مثلًا ما روي عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام من قوله: «ذكّ قلبك بالأدب، كما تذكى النار بالحطب»[1].

(١) نفسه ٢: ١٦٨.

٥ - ترك الذكر يساوق تسلط الشيطان

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(١)

لا يكتفي القرآن الكريم بالدعوة إلى ذكر الله تعالى والحث عليه، حتى يبيّن أيضًا الآثار الوخيمة التي تنتج من إعراض الإنسان عن هذا الذكر، والآية الكريمة التي هي محل الكلام واحدة من تلكم الآيات الشريفة التي تكفلت ببيان هذه الآثار.

تصرّح الآية بأنّ ترك الذكر الإلهي تستتبع أن يقع هذا التارك في مصائد الشيطان المرافقة له إلى الأبد وعلى

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

الدوام، وقد استعملت في سبيل هذا البيان مجموعة من الألفاظ والتعبيرات الزاخرة بالدلالات العميقة المؤثرة:

استعملت، في البدء، التعبير: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾، وهذا الفعل هو من «العَشَا» الذي يعني - كما في لسان العرب - سوء البصر في الليل والنهار، أو في الليل على وجه الخصوص. وفي اختيار هذا الفعل دون الفعل «يعمى» مثلًا دلالة عميقة نبّه عليها بعض المفسرين، فلو كانوا في الواقع عميًا لما استحقوا المؤاخذة الإلهية، لكنهم ليسوا كذلك، وإنما هم «يعشون» أي يسيئون استعمال طاقاتهم، فتكون نتيجة ذلك أنهم لا يصلون إلى المبتغى والغاية بسبب سوء اختيارهم، وليس لعجزهم عن ذلك. ونظرًا لسوء الاختيار هذا كان جزاؤهم المستحق هو تقييض الله لهم شيطانًا، فهذا هو ما يستحقونه فعلًا. ونسبة الفعل «نقيّض» إلى الله تعالى إنما هي من جهة كونه - سبحانه - مسبب الأسباب في كل شيء وكل حدث في هذا الوجود.

وهذا الفعل «نقيّض» هو من التقييض بمعنى التقدير، أي: نقدّر له شيطانًا، أو هو بمعنى الإتيان بشيء إلى شيء

آخر، فيقال مثلًا: «قيّضتُ له عملًا» أي أتيتُه بعمل، والمعنى: نأتيه بشيطان. وأيًا ما كان الأمر، فقد وُصف هذا الشيطان بأنه «قرين» لهذا الذي ترك الذكر، والمراد أنه مرافق دائم، لا يفارقه في أي زمان أو مكان!

ونتوقف، بعد هذا، مع الآية الشريفة وقفات للاستفادة، منها:

الوقفة الأولى:

يستفاد من تعبير القرآن «العشا» عن الذكر أنّ الأصل في الذكر الإلهي أن يكون قلبيًا؛ ذلك أنّ العشا قريب في مدلوله من العمى، والعمى يعبّر به القرآن الكريم عن غياب البصر أو البصيرة عن القلب، كما يتجلى في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1]، وهذا معناه أنّ التعبير بـ «العشا» يناسب القلب وليس اللسان، فالقلب قد يعمى وقد يعشو، مثلما تعمى العين وتعشو أيضًا. أما اللسان فلو كان مرادًا هنا

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

لقيل: «ومن يخرس عن ذكر الرحمن»، فاللسان يناسبه الخرس وليس العشا، وهذا كله بالنتيجة يقود إلى مدلول مركزي تبرزه الآية، وهو كون الذكر في أساسه مرتبطًا القلب.

ولمّا كان هذا هكذا، وجدنا الروايات الشريفة تربط الذكر بالحب الإلهي، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «الذكر لذة المحبين»[١]، وأيضًا عنه عليه السلام: «الذكر مجالسة المحبوب»[٢].

وهذا الحب لا ريب أنه أهم الأسس التي تجعل للعبد خصوصية مميزة عند ربه، فقد روي أنّ رجلًا قال للنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «أحب أن أكون أخص الناس إلى الله تعالى»، فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «أكثرْ ذكر الله تكن أخص العباد إلى الله تعالى»[٣].

إنّ كون الذكر مركزه القلب في الأساس هو الذي

(١) ميزان الحكمة ٣: ٤٠٦.
(٢) نفسه ٣: ٤٠٧.
(٣) نفسه ٣: ٤٠٩.

يفسر لنا الأثر الوخيم البليغ الذي يتركه ترك الذكر في قلب الإنسان، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كل حال؛ فإنّ كثرة المال تُنسي الذنوب، وإنّ ترك ذكري يقسي القلب»(١).

وإذا رجع المرء إلى وصايا المعصومين عليهم السلام لأصحابهم وملازميهم وجدها تؤكد قضيةَ الذكر الإلهي القلبي، فمن ذلك مثلًا ما روي عن أبي أسامة قال: «زاملت أبا عبد الله عليه السلام فقال لي: اقرأ، فافتتحت سورة من القرآن فقرأتها، فرقّ وبكى، ثم قال: يا أبا أسامة ارعوا قلوبكم بذكر الله عز وجل، واحذروا النّكْت، فإنه يأتي على القلب تارات أو ساعات الشك من صباح ليس فيه إيمان ولا كفار، شبه الخرقة البالية أو العظم النخر، يا أبا أسامة أليس قد تفقّدتَ قلبك فلا تذكر به خيرًا ولا شرًا ولا تدري أين هو؟ قال: قلت له: بلى، إنه ليصيبني وأراه

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٥٥.

يصيب الناس، قال: أجل، ليس يعرى منه أحد، قال: إذا كان كذلك فاذكروا الله عَزَّوَجَلَّ واحذروا النكْت فإنه إذا أراد بعبد خيرًا نكت إيمانًا، وإذا أراد به غير ذلك نكت غير ذلك، قال: قلت: ما غير ذلك جُعلت فداك؟ ما هو؟ قال: إذا أراد كفرًا نكت كفرًا»[1].

الوقفة الثانية:

مع كل الأهمية التي يوليها الإسلامُ الذكرَ القلبي، لا يعني ذلك كونَ الذكر اللساني فاقدًا للأهمية، فهذا مهم أيضًا بلا ريب، فهو علامة على حضور الذكر في القلب، أو هو، في أقل تقدير، كاشف عن رغبة صاحبه في أن يكون قلبه ذاكرًا لربه، وهو، من بعد، حافز للقلب على الذكر، ووسيلة للسيطرة على طائر الخيال ومنعه من التحليق بعيدًا في آفاق الدنيا وشهواتها ومشاغلها.

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٥٩.

إنّ أهمية الذكر اللساني تتبدى بجلاء إذا نحن تمعّنّا في الروايات غير القليلة التي جاءتنا تعلّمنا الأدعية والمناجيات وأنواع الأذكار المختلفة، في الأوقات والمناسبات المتنوعة، فلولا أهمية الذكر اللساني وضرورته في سبيل إيجاد حياة روحية داخلية سويّة للوجدان لما حفلت الروايات الشريفة بكل هذا الثراء الكمّيّ والنوعيّ في تعليم الأذكار.

بل يجد المرء، علاوة على ما تقدم، في بعض الروايات ما يعلّم المؤمنين أصول الذكر وضوابطه، وما ينبغي ولا ينبغي فيه. وهذا مثال على هذا التعليم:

روي أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال لعبد الله بن سنان: «ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى ولا إمام هدي، لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق. فقال الراوي: وكيف دعاء الغريق؟ قال عليه السلام: تقول: يا الله يا رحمان يا رحيم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك. قال الراوي: فقلت: يا مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك.

فقال عليه السلام: إنّ الله عز وجل مثبّت القلوب والأبصار، ولكن قل كما أقول: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»[١].

ترشد الرواية إلى أنّ ثمة أسرارًا في الأذكار المروية قد لا تدركها عقولنا، وأنّ هناك آثارًا لألفاظ معيّنة دون غيرها؛ لذا لا ينبغي لنا أن نضيف إلى هذه المرويات ما نريد، وإنْ كان ما نضيفه صحيحًا في نفسه كما في مورد الرواية، مثلما لا ينبغي أيضًا أن نحذف ما لا نعرف له وجهًا أو لا نهتدي إلى كنه فهمه. ومن نفل القول: إنّ هذا كله كاشف عن الأهمية الخاصة الثابتة للأذكار اللسانية اللفظية.

الوقفة الثالثة:

حين أرادت الآية المباركة أن تذكّر بأهمية الذكر الإلهي وتحذّر من خطورة تركه، اختارت استعمال اسم

(١) نفسه ٥٢: ١٤٩.

معيّن من أسماء الله الحسنى هو «الرحمان»، ولا شك أنّ لهذا الاختيار دون سواه مغزى معيّنًا وتأثيرًا خاصًا في المقام. يتضح لنا جانب من هذا إذا رجعنا إلى معنى هذه الكلمة فنجد ما يأتي: «ولا يطلق الرحمان إلا على الله تعالى من حيث إنّ معناه لا يصح إلا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة»[١].

«الرحمان»، إذًا، هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة التي لا تُحدّ بفئة دون فئة، أو ناس دون آخرين، فهي شاملة للمؤمن والكافر والمنافق والملحد؛ لأنها الرحمة التكوينية التي تعني أنّ الله تعالى ما خلق خلقًا إلا من منطلق الرحمة، ولا يدبّر في هذا الوجود تدبيرًا إلا للرحمة، في الأصل. وقد أبدع الخلق وهداهم أجمعين إلى ما فيه بقاؤهم ونماؤهم وسعادة حياتهم، وزوّدهم بكل الآلات والوسائل التي تحقق لهم، من الناحية التكوينية، ما يسمو بهم ويحقق الغرض من وجودهم.

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة «رحم».

إنّ هذه النعم الإلهية الكونية التي تمثلت فيها رحمانيّته لا تخلو منها أية ذرة من ذرات الوجود، ولا يستغني عنها الإنسان في أي آنٍ من آنات حياته، أفلا يبصرها هؤلاء المعرضون عن ذكر الرحمان؟ ما بالهم، إذًا، يتنكرون له ويتركون ذكره عامدين قاصدين؟ أهذا ما تدعوهم إليه عقولهم وتقتضيه الحكمة والوعي؟

هكذا القرآن يعلّمنا أنْ نتخذ من الرحمة مدخلًا ومنطلقًا لاجتذاب الناس إلى طريق الحق؛ ذلك أنّ الانجذاب إلى الرحمة إحساس فطري يحمله كل امرئ من البشر في داخله. يبقى أنّ البشر قد يغفل أحيانًا عن هذه الرحمة الإلهية، على الرغم من جلائها ووضوحها في كل شيء من حوله وفي نفسه، فيحتاج إلى من يذكّره بها ويشوّقه إلى الارتباط بمصدرها، وإذ ذاك سيدفعه الإحساس بالفضل الإلهي عليه والانتباه إلى رحمانيته سبحانه إلى العودة إليه والتعلق به.

والارتباط بالرحمة الإلهية لا يكون حقيقيًا صادقًا إلا بالارتباط بدينه ونهجه والتقيّد بأوامره ونواهيه، فقد روي

عن سيد الخلائق أجمعين محمد ﷺ أنه قال: «تعرّضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته»[١].

الوقفة الأخيرة:

علينا أن نحذر كل الحذر أن نبلغ في الهويّ والانحطاط والسقوط تلك المرتبة التي يصبح فيها الشيطان لنا «قرينًا»، فيغدو ملازمًا لنا في كل أوقاتنا وكل أماكننا التي نكون فيها: فيجعلنا في البيت نظلم أهلينا وعيالنا، وفي مكان العمل نسرق ونخون، وفي المجتمع الواسع نكذب ونغتاب ونسقّط بعضنا، بل حتى في المسجد وأوقات العبادة لا يدعنا الشيطان دون أن يزرع فينا الوسوسة والخواطر المختلفة، ويبعدنا عن الاطمئنان الروحي والإقبال الكامل على عباداتنا، وهكذا نصير في قبضة الشيطان خاضعين لإساره.

(١) ميزان الحكمة ٤: ٧٧.

لقد نبّهتنا الروايات الشريفة على أنّ وصول الإنسان في تردّيه إلى درجة الاقتران بالشيطان له أسبابه النفسية وجذوره الداخلية في وجدانه. فمن ذلك ما روي عن النبي الأعظم محمد ﷺ: «بينما موسى بن عمران جالس إذ أقبل إبليس... قال له موسى عليه السلام: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذتَ عليه، فقال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»(١).

وإضافةً إلى هذه الأسباب النفسية، فإنّ هناك ممارسات خارجية معيّنة وتصرفات تصدر من المرء تكون ذات أثر كبير في جعله تحت سلطة الشيطان، فقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «مجالسة أهل الهوى منساة للإيمان ومحضرة للشيطان»(٢).

لا مناص، إذًا، من تعاضد الداخل والخارج جميعًا، في سبيل تجنّب الاقتران بالشيطان، وهذا معناه الاشتغال الحقيقي الجاد بإصلاح النفس والسير بها في طريق

(١) ميزان الحكمة ٥: ٩٢- ٩٣.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

صلاحها، بدلًا من الاشتغال الفضولي السفهي بغيرها، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا: «من شغل نفسه بغير نفسه تحيّر في الظلمات، وارتبك في الهلكات، ومدّت به شياطينه في طغيانه، وزيّنت له سيّء أعماله»[١].

وإنّ من أهم طرائق هذا الاشتغال بالنفس أن يواظب الإنسان على ذكر الله تعالى، بكل صور هذا الذكر وتجلياته؛ كيما يطرد عنه شيطانه، مثلما قال الإمام علي عليه السلام كذلك: «ذكر الله مطردة الشيطان»[٢].

(١) نفسه، الخطبة ١٥٧.
(٢) ميزان الحكمة ٣: ٤٢٠.

٦ - العبودية الحقة
نافية لسُلطة الشيطان

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(١)

جاءت هذه الآية الشريفة في سياق الرد الإلهي على إبليس الذي كان قد قال في قصته مع آدم عليه السلام وإبائه السجود له امتثالًا للأمر الإلهي: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢)، فالشيطان الرجيم يسعى إلى الرد على التفضيل الإلهي لآدم عليه بأن يتوعد باحتناك ذريته بالطريقة التي لن ينجو منها إلا القليل منهم. و«الاحتناك» هو إما بمعنى الاقتطاع من أصل، أي أنه لن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٦٢.

يسمح لأحد، إلا القليل، بسلوك طريق طاعة الله تعالى، وإما بمعنى الإلجام، أي أنه سيتخذ من ذرية آدم مطايا له، يوجهها حيثما يريد بواسطة لجامه الخاص، وسينقاد هؤلاء جميعًا له إلا القليل منهم.

هذا الوعيد الشيطاني كان لا بد له من ردّ ربّانيّ حكيم وقويّ في الوقت ذاته؛ لذا جاءت الآية الكريمة التي هي محل كلامنا لتجأر بحقيقة تُعدّ قانونًا إلهيًا لا يتخلف بحال، وهي الحقيقة الماثلة في أنّ عباد الله ليس للشيطان الرجيم عليهم أي سلطان، فلا يمكنه، مهما حاول وسعى، أن يبعدهم عن طريق عبوديتهم الحقة لربهم، وليس في وسعه أن يضمهم تحت سلطنته، بالغةً ما بلغت قوتها وشدة أسرها للناس الآخرين البعيدين عن العبودية؛ ذلك أنهم استعانوا بوكالة ربهم، وهو سبحانه خير وكيل: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

وبعد، ففي الآية الكريمة محطات عدّة يجمل التوقف عندها:

المحطة الأولى، أثرالعبودية الحقة:

أن يتحلى الإنسان بالعبودية الحقة، أي أن يكون للعبودية عمقها الإيماني في نفسه وتجلّيها الواقعي المؤثر في أعماق روحه، لا أن تكون مجرد لقلقة لسان ومظاهر شكلية لبعض العبادات الظاهرية، هذا له أثره الفعلي الواضح في سلوك هذا الإنسان وطريقته العملية في كل أوقاته وتصرفاته الصادرة عنه.

إنّ هذا الإنسان يستحضر دومًا أنه لم يُخلق عبثًا، فعبادته لربه وصولًا إلى الكمال البشري، فالنعيم الإلهي، هي الغاية التي لا بد له من تحقيقها كيما تكون حياته محققةً الهدف منها، فهو إذًا مطالب بشحذ كل طاقاته واستثمار كل إمكاناته في طريق تحقيق هذه الغاية السامية، وليس يجوز له، بحكم عقله وربه، أن يسمح للشيطان الرجيم باقتياده بعيدًا عن الغاية أو بشغله عنها بزخارف هذه الدنيا وملهياتها الجذابة، وإلا كان «بئس العبد» بتعبير سيد الكائنات محمد ﷺ: «بئس العبد عبد خُلق للعبادة،

فألهته العاجلة عن الآجلة، وشقي بالعاقبة»[١].

وإذا كان المرء يسعى إلى التقرب إلى ربه بصنوف العبادات وأنواع القربات فليكن على يقين بأنّ هذه كلها لن تحقق أثرها المنشود ما دام يسمح للشيطان باقتياده وتوجيهه إلى المسالك المبعدة عن طاعة الله، وقد شبّه رسول الله ﷺ، فيما روي عنه، هذه الحالة تشبيهًا رائعًا عميق التأثير إذ قال: «العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل»[٢]. نعم، ما جدوى أن يحرص الإنسان على العبادة في الإبّان نفسه الذي لا يجد في نفسه مانعًا يحول بينه وبين ارتكاب الحرام؟ وهل حالة هذا العمل العبثي السفهي إلا كحالة ذاك الذي يريد حقًا أن يبني لنفسه بناءً، لكنه لا يختار له إلا الرمل أو الماء مكانًا؟

هذه هي حالة العبودية الحقة التي يريدها الله تعالى لنا، وهي التي تحاول كل العبادات التي جاء بها الشرع المقدس أن توصلنا إليها. إنها الحالة التي يظهر فيها التوحيد مطبقًا

(١) ميزان الحكمة ٦: ٢٢.
(٢) نفسه ٦: ٢٣، وقد روي الحديث بصيغة أخرى أيضًا: «على الماء».

عمليًا في سلوكنا، فلا نعبد من دون الله تعالى، أو معه، لا شيطانًا ولا شهوة ولا هوًى ولا رغبة. وهي الحالة التي متى ما أخلصنا في الوصول إليها استحققنا هذا الشرف العظيم في أن ينسبنا رب العزة إليه: ﴿عِبَادِى﴾.

وهنا محل العز الذي ما فوقه عز، والفخر الذي لا يعلوه فخر للبشر، مثلما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في مناجاته القصيرة لفظًا العميقة مضمونًا: «إلهي كفى بي عزًا أن أكون لك عبدًا، وكفى بي فخرًا أن تكون لي ربًا، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب»[١].

المحطة الثانية، نفي سلطنة الشيطان:

لا تتحدث الآية الكريمة عن أنّ العباد الحقيقيين لله تعالى لا يخطئون أصلًا، فلربما يخطئون، وهذا المعنى يكشف عن التعامل الواقعي غير المثالي للإسلام مع

(١) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، الطبعة الحجرية المعرّبة، ص١٣١.

الطبيعة البشرية التي قد يغلب عليها ضعفُها أحيانًا، لكنهم لا يظلون غارقين في مستنقعات الخطأ، ولا يستسلمون لإسار الشيطان، أي أنهم لا يرتضون لأنفسهم أن يخضعوا لسلطانه ويصبحوا من جملة أتباعه وأنصاره. فالفرق كبير بين الحالتين: حالة أن يقع المرء في المعصية دون رغبة منه في ذلك ودون قصد التجاوز على حرمة دين ربه، وحالة أخرى يرضى فيها بأن يظل على الدوام خاضعًا لسلطان شيطانه ومستسلمًا لما يريده منه.

وقد تعرّضت الروايات الشريفة لذكر مجموعة من الصفات القبيحة التي متى ما وُجدت في الإنسان جعلته في معرض استحواذ الشيطان عليه وإدخاله تحت سلطانه، فمن هذا مثلًا ما روي عن الرسول الأكرم محمد ﷺ من أنّ موسى عليه السلام سأل الشيطانَ يومًا عن الذنب الذي إذا أذنبه العبد استحوذ الشيطان عليه، فأجابه: «إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»[١].

(١) ميزان الحكمة ٥: ٩٣.

نعم، إنّ الإنسان يعين عدوه الشيطان على نفسه حين يرضى لها الاتصافَ بهذه الصفات المذمومة الخطيرة: فهو عندما يمتلئ وجدانه إعجابًا بنفسه تأخذه العزة بالإثم، فلا يرى نفسه إلا على الصواب الصراح، وينعدم في عينه، أو يكاد، أي احتمال لأنْ يكون في مسيرته خلل أو في سلوكه عطب. وحين يستكثر عمله يزداد الطين بلّة، فيستيقن إذ ذاك من كون عمله الصالح قد بلغ من الكثرة والجودة حدًا يمتنع عليه معه الخسران والضياع. وطبيعي بعد هذا وذاك أنْ يستصغر ذنبه، فلا يراه إلا لممًا حقيرًا لا قيمة له، فلا يتورع عن تكراره والازدياد منه كلما سنحت له فرصة لتعدي حدود الله سبحانه. وأي مصير ينتظر شخصًا كهذا، سوى أن يصير تابعًا ذليلًا للشيطان وخاضعًا حقيرًا لسلطانه؟

المحطة الثالثة، كفي بالرب وكيلاً، بالمعنى الأول:

ذكر المفسرون لخاتمة الآية الشريفة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ معنيين اثنين: فالمعنى الأول منهما هو كونه تعالى «قائمًا على نفوسهم وأعمالهم، حافظًا لمنافعهم، متوليًا لأمورهم، فإنّ الوكيل هو الكافل لأمور الغير القائم مقامه في تدبيرها وإدارة رحاها، وبذلك يظهر أنّ المراد به وكالته الخاصة لغير الغاوين من عباده»[1].

القضية هنا، بناءً على هذا المعنى الأول، هي قضية أن يوقن المرء، أو يعمّق يقينه إن كان في أصله موجودًا، بأنّ الله ﷻ متكفل بشؤونه، وخير من يمكن أن يقوم مقامه فيها، ولا أحسن منه لها تدبيرًا، ولا افضل صيانةً ورعايةً لمصالحه الحقيقية الواقعية. وعليه أن يكون على ثقة تامة بأنّ يقينه هذا سيؤدي به إلى سلوك طريق العبادة الحقة، وإذ ذاك ستصبح كل أمانيه ورغباته المشروعة متاحة بين يديه، وإلى هذا أرشدنا الإمام الحسين بن علي عليه السلام

(١) الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي، ١٣: ١٤٧.

بقوله: «من عبد الله حقّ عبادة آتاه الله فوق أمانيه وكفايته»[١].

إنّ النصوص الشرعية تخاطب، من هذا الطريق، وجدان كل إنسان منّا بكل دقة وعمق؛ ذلك أنّ كلًا منّا يحمل في داخله طموحات وآمالًا كثيرة، ويسعى، بكل وسعه، إلى بلوغها وتحقيقها، فتأتي هذه النصوص لتلاقي هذه الناحية الوجدانية تحديدًا، وتفيدنا جميعًا بأنّ الله ﷻ هو خير كفيل وخير وكيل لتحقيق ما نصبو إليه ونتطلع، فلنسلك سبيل عبادته بإخلاص وتفانٍ، فهو سبيل سعادتنا الحقة وطريق تحقيق مرادنا.

المحطة الأخيرة، كفى بالرب وكيلاً، بالمعنى الآخر:

المعنى الآخر الذي ذكره بعض المفسرين لخاتمة الآية المباركة هو أن يحسن المرء التوكل على ربه، فعباد الله الحقيقيون والمخلصون «بصبرهم وصمودهم وبإيمانهم

(١) ميزان الحكمة ٦: ٢٧.

وتوكلهم على الله سوف يُفشلون الخطط الشيطانية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[١].

إنّ هذا المعنى لا يتوقف عند أن يكون المطلوب هو اليقين الإيماني فقط، بل يتعداه إلى المطالبة بتحريك النفوس عمليًا في اتجاه التوكل الصادق على الله سبحانه، فهذا التوكل سدّ عظيم أمام الشيطان وخططه مثلما نصّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢].

وليست في القضية أية غرابة؛ بعد أن كان المتوكل منيطًا كل جوانب توفيقه في المجالات المختلفة بالله تعالى وحده، عقيب إتيانه بما هو مطلوب منه وأخذه بأسباب التوفيق والنجاح، فإذا وجد الله فيه قلبًا موقنًا، ونية صادقة، واعتمادًا حقيقيًا عليه، فإنه لا محالة سيكون له الموفّق والكافي في الشؤون كافة، كما وعده، ووعده

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ٩: ٤٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٩.

متحقق بلا مراء: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[١].

وإذا كان العبد قاصدًا في توكله على الله أن يبعده عن سلطة الشيطان وأن يوفقه في إفشال خططه ضده، فإنّ الله سبحانه أكرم وأرحم من أن يتغاضى عن حاجة عبده ورغبته الصادقة في الخروج عن ربقة الشيطان؛ لذا ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

«قال إبليس: خمسة أشياء ليس لي فيهن حيلة، وسائر الناس في قبضتي: من اعتصم بالله عن نية صادقة واتكل عليه في جميع أموره، ومن كثر تسبيحه في ليله ونهاره، ومن رضي لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه، ومن لم يجزع على المصيبة حين تصيبه، ومن رضي بما قسم الله له ولم يهتم لرزقه»[٢].

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٢) بحار الأنوار ٦٨: ١٣٦.

٧ - تجارة غير بائرة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[1].

تعرض لنا الآية المباركة مجموعة من الصفات الحسنة التي متى ما اتصف بها الإنسان فإنه سيكفل لتجارته مع الله تعالى عدم البوار، أي عدم الكساد أو الخسران:

فأما الصفة الأولى فهي أنهم ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، والمعنى، عند معظم المفسرين، أنهم يقرؤون القرآن الكريم، وقد عُبّر عنه بـ «كتاب الله» تعظيمًا لشأنه. لكن

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

هناك من المفسرين - كما ينقل صاحب «روح المعاني»[١] - من ذهب إلى أنهم يَتْبَعون القرآن، أي يعملون بما فيه، وهذا المعنى غير معهود من القرآن الكريم في استعماله للفعل «يتلون» في الموارد المختلفة؛ لذا فالمعنى الأول أرجح وأظهر عند أغلب المفسرين.

وقد نبّه صاحب «التحرير والتنوير»[٢] على السر في كون الفعل هنا مضارعًا، في حين أنّ الفعلين اللاحقين هما فعلان ماضيان. وهذا السر راجع إلى كون القرآن الكريم مستمر النزول في وقت نزول هذه الآية؛ لذا تكون تلاوته متجددة بتجدد نزوله، ولإفادة هذا التجدد جاء الفعل هنا مضارعًا.

وأما الصفة الثانية فهي أنهم ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقد ذُكرت لإقامة الصلاة معانٍ عدة، أبرزها الاستمرار في الإتيان بها بكل شرائطها وأجزائها المطلوبة شرعًا.

(١) روح المعاني، الآلوسي، ٢٢: ٤٩٩.
(٢) التحرير والتنوير، الشيخ ابن عاشور، ٢٢: ١٦٠.

فهؤلاء المؤمنون الصالحون تربطهم بصلاتهم رابطة وثيقة لا تنفصم بحال؛ لذا فهم حريصون أشد الحرص على أن يأتوا بها على أحسن وجه وفي أبهى كيفية.

وأما الصفة الأخيرة فهي أنهم ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، فليس من خصالهم البخل والاستئثار بالرزق؛ ذلك أنهم موقنون بأنّ المالك الحقيقي لما هو بين أيديهم من صنوف الرزق إنما هو الله تعالى، وهم ليسوا سوى مستخلَفين فيه، فبأي وجه حق يمكنهم أن يبخلوا ويمتنعوا عن صرف ما هو لله في الجهات التي أمر الله ودعا إلى الإنفاق فيها؟ إنهم يعون جيدًا أنّ هذا لا ينبغي لهم؛ لذا تراهم سالكي سبل الإنفاق سرًا وعلانيةً، ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا.

هؤلاء الصالحون إذا تحققت فيهم الصفات الثلاث المذكورة فإنهم ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾، والفعل «يرجون» هو بمعنى يؤملون وينتظرون، والإتيان به يفيد أنهم ليسوا واثقين من قبول أعمالهم، ويؤدي بهم هذا إلى ألّا يثقوا بكون تجارتهم غير بائرة؛ لذا فهم يتعاملون مع

ربهم من منطلق الرجاء والأمل بعدم الخسارة، وليس من منطلق الحتم واليقين بذلك.

ونتوقف، بعد هذا، عند مواضع من الآية المباركة:

الموضع الأول، ترابط العبادات:

تتحدث الآية المباركة عن عدة أنواع من العبادات، ومع هذا فهي تربط بينها جميعًا في حديثها عن النتيجة التي تقودنا إليها، مشيرةً بذلك إلى أنها - مهما تفاوتت في أشكالها الظاهرية واختلفت فيما بينها في أجزائها وشرائطها - مترابطة كل الترابط من جهة الأثر الذي تتركه والنتيجة التي تستهدفها، فهي بأجمعها، بالنتيجة، ترمي إلى ترسيخ روح العبودية في وجدان الإنسان، والأخذ بيده إلي مدارج التكامل والتسامي إلى معالي الدرجات التي خُلق لأجل الوصول إليها، وبذا يتحقق الغرض من وجوده من أساس.

إنّ هذا الترابط بين العبادات ينبغي أن يجعل المرء منّا يهتم بالعبادات الشرعية كلها، بالغًا ما بلغ تفاوتها في

الصعوبة والسهولة، لا أن يميل، كما يفعل الكثيرون، إلى بعض العبادات، أعني تلك التي تلائم مزاجه ولا تثقل عليه ولا تكلّفه أي عناء حقيقي، وفي المقابل يهمل بعضها الآخر، أي ما لا يجد له انجذابًا إلى مزاجه الخاص!

وربما تكون العبادات المالية أكثر أنواع العبادات إهمالًا عند أناس كثيرين، فهم يتحاشون دفع ما وجب عليهم دفعه في هذا المجال من الزكاة أو الخمس أو الكفارات وما إليها. وما أعظمها من فرحة، تلك التي تستولي على نفوسهم حينما يعثرون على حيلة من الحيل الشرعية التي يتمكنون بها من عدم إخراج بعض مال الله من جيوبهم، متناسين تمامًا قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[1].

إنّ العبادات المالية ترمي إلى جعل هذا الإنسان قادرًا على قطع تعلّقه القلبي الشديد بالمال وبالدنيا كلها، فهي

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

تريد منه أن يكون مخلصًا في عبادة ربه لا يشرك به شيئًا، لا أشخاصًا ولا أموالًا، وإلا سيظل من دونها عابدًا للدنيا وبهارجها، متمسكًا بها من أعماق قلبه، كارهًا فراقها، غافلًا عن الآخرة، ناسيًا إياها. روي أنّ رجلًا قام إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، مالي لا أحب الموت؟ قال: ألك مال؟ قال: نعم، قال: فقدّمه، قال: لا أستطيع، قال: فإنّ قلب الرجل مع ماله، إن قدّمه أحب أن يلحق به، وإن أخّره أحب أن يتأخر معه»[١].

الموضع الثاني، القصديّة في العبادات:

لا يخفى على أحد أنّ للعبادات الشرعية تأثيراتها الإيجابية في حياة الفرد والمجتمع، فهي تربط الفرد ربطًا مباشرًا بربه، وتحقّق العبودية الحقة وتجسّدها في واقعه، مثلما تزرع في المجتمع أيضًا روح السعي المتواصل نحو

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، العلامة أبو علي الطبرسي، المجلد ٥، ج٢٢ ص٢٤٠.

ترسيخ القيم الإلهية وبناء الواقع الاجتماعي الذي يريده الله تعالى في جوانب الحياة كافة. لكن هناك من الناس من يحسب أنّ هذه التأثيرات الإيجابية تتحقق بطريقة تلقائية، دون أن تكون للناس أية وظيفة في هذا الصدد سوى تلقّي تلكم التأثيرات!

الحقّ أنّ العبادات لا تتحقق معظم آثارها إلا عندما يؤتى بها بقصد محدد، وليس المراد هنا الحديث عن ضرورة قصد القربة إلى الله تعالى في النية، فهذه القضية هي أوضح من أن تغيب عن إدراك أحد. بل الحديث هنا عن نوع القصد الذي نحمله في نفوسنا - بعد قصد القربة - في تعاملنا مع العبادة التي نأتي بها، وكيفية نظرنا إليها، فقد تحدث صاحب التفسير الأمثل مثلًا[١] عن أنّ قراءة القرآن المقصودة هنا هي تلك التي تكون عن تفكّر وتدبّر، وهي التي تقود إلى إقامة الصلاة والإنفاق. فالإنسان، إذًا، يختار ويتقصد نوع تلاوته للقرآن. وكذلك الحال في

(١) الأمثل ١٤: ٦٠.

الإنفاق، إذ على الإنسان أيضًا أن يختار نوعه، فقد يكون سرًا لأجل تعميق الإخلاص في داخله، وقد يكون علنًا لأجل ترغيب الآخرين وتشجيعهم. ولا شك أيضًا أنّ الصلاة التي تؤتي أُكُلها من النهي عن الفحشاء والمنكر ليست أية صلاة كيفما كانت، وإنما تلك التي تكون عن حضور القلب وخشوع الجوارح وتحقيق الأجزاء والشرائط على أبهى وجه.

إنّ مشكلة الكثيرين منّا هي أننا نؤدي عباداتنا، أو بعضها، بغرض إسقاط التكليف الشرعي عنّا وإبراء ذممنا فقط، دون أن نعير كثيرًا من اهتمامنا لقضية الآثار الإيجابية لتلكم العبادات، ودون أن نذكّر أنفسنا بأنّ تحقيق هاتيك الآثار يتطلب منا أن نأتي بالعبادات بقصد معيّن، وليس بأية طريقة كانت، ذلك القصد الذي هو في واقعه «تنعّم» بالعبادة، إن كنا نعي حقًا، فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «قال الله تبارك وتعالى: يا عبادي الصّدّيقين، تنعّموا بعبادتي في الدنيا،

فإنكم تتنعمون بها في الآخرة»[١]. وغير خافٍ أنّ «التنعّم» بالعبادة يستلزم أن يؤتى بها مقرونةً بإحساس وجداني حقيقي بها، فلا تكون أفعالًا شكلية باردة، بل تزخر بحرارة القصدية الموجودة في داخل العابد الآتي بها.

الموضع الثالث، الناحيتان الفردية والاجتماعية في العبادات:

العبادة، في المنظور الإسلامي، ليست تعني الانزواء عن الحياة الاجتماعية، والانكفاء على الذات وحدها ابتغاءَ إصلاحها والارتقاء بها بمبعدة عن المجتمع وهمومه وتطلعاته وتحدياته، وهذا بيّن في التشريعات الدينية المرتبطة بالعبادات المختلفة.

وإذا كانت تلاوة كتاب الله يمكن أن تتحقق بصورة جماعية مثلما يمكنها التحقق بطريقة فردية، وكذلك الكلام عن إقامة الصلاة أيضًا، فإنّ الإنفاق في سبيل الله

(١) ميزان الحكمة ٦: ٩.

هو أظهر المذكورات في الآية الشريفة تمثيلًا لهذه الحقيقة، أي حقيقة بروز الجانب الاجتماعي في الأفعال العبادية الإسلامية؛ إذ أنّ الإنفاق لا يتحقق، في العادة، إلا من نفسٍ تتحسس أوضاع الآخرين البائسة وتتفاعل معها وجدانيًا، فيكون الهمّ الاجتماعي حاضرًا عندها بصدق وعمق، لا سيما في صورة الإنفاق العلني الذي يشكّل، بعلنيّته هذه، دعوةً صريحةً للآخرين في المجتمع إلى الاقتداء والتأسي في هذا العمل الاجتماعي الخيّر.

صحيحٌ أنّ الله تعالى يريد لنا أن نأتي بعباداتنا كلها خالصةً لوجهه الكريم، وابتغاءً لرضاه، لكن ما أعظم هذا الرب الذي يربط رضاه بخدمة الناس والسعي إلى صلاح أحوالهم وتحسين أوضاعهم! روي أنّ عيسى المسيح عليه السلام قال لرجل: «ما تصنع؟ قال: أتعبّد، قال: فمن يعود عليك؟ قال: أخي، قال: هو أعبد منك»[1].

(١) ميزان الحكمة ٦: ١٧.

الموضع الأخير، التحريك الترغيبي:

تحرّك الآية الكريمة نفوس المؤمنين نحو السير الحثيث في طريق الخير، بذكرها للتجارة التي لن تبور، وهي التجارة التي تكون بين العبد وربه، ولا تشبهها أية تجارة أخرى من التجارات، نظرًا لما فيها من مزايا خاصة لخّصها صاحب الأمثل فيما يأتي:

١ - إنّ الله تعالى هو مصدر كل ما عند البائع من بضاعة، ومع هذا فهو سبحانه يشتريها منه.

٢ - الله يشتري ليس لكونه محتاجًا إلى ما يشتريه، فهو الغنيّ بذاته عن كل ما سواه، بل لأجل أن يستفيد البائع.

٣ - إنه (جلّ شأنه) يشتري البضاعة القليلة بالسعر الباهض.

٤ - يشتري سبحانه أية بضاعة عرضها عبده، مهما كانت تافهة وغير ذات قيمة.

٥ - يعطي قيمة تعادل سبعمائة ضعف أو أكثر.

٦ - علاوة على الثمن الجزيل فإنه سبحانه يضيف إليه من فضله ورحمته[١].

ولمّا كانت هذه التجارة هكذا، لم يكن غريبًا أن يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما تقرّب متقرّب بمثل عبادة الله»[٢].

إنّ القرآن الكريم يعلّمنا كيف يمكننا أن نحرّك الآخرين من حولنا نحو طريق الخير من خلال ترغيبهم فيه وتشجيعهم عليه، فالنفس البشرية تنجذب بطبعها إلى الترغيب، وتطمئن إلى التشجيع، وتسير نحو المراد بكل راحة وثبات حينما تجد من الآخرين من حولها اهتمامًا وتلقى بأعمالها منهم عنايةً، فهي إذ ذاك تشعر بقوة داخلية في وجدانها تحرّك كل إمكاناتها المتاحة لها لأجل الوصول نحو الأهداف المبتغاة.

ومن المثير للأسف فعلًا أن تغيب حالة الترغيب

(١) الأمثل ١٤: ٦٣، بتصرف.
(٢) ميزان الحكمة ٦: ١٠.

والتشجيع هذه عن كثيرين، وهم أولئك الذين لا يتقنون كيفية التعامل بهذا الأسلوب الحضاري مع من حولهم من الناس، بل قد لا يحسنون حتى توجيه كلمة «شكرًا» لأقرب الناس إليهم، وأكثرهم فضلًا عليهم، مثل أهليهم وأصدقائهم.

٨ - الدعاء: شرائط الاستجابة ووجوه الأهمية

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(١)

نُقل أنّ رجلًا سأل رسولَ الله ﷺ عن الله تعالى، أقريبٌ هو ليناجيه بصوت خفيّ أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت هذه الآية المباركة لتجيب عن هذا السؤال، مبيّنةً أنه ﷻ قريب من عباده، وهو المتكفل بإجابة دعائهم إذا دعوه، فما عليهم، والحال هذه، سوى أن يستجيبوا له ويؤمنوا به، عسى أن يكون ذلك موجبًا لرشادهم واهتدائهم للحق الذي فيه خيرهم كله.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

ولا يخفى أنّ الآية تحمل وعدًا إلهيًا صريحًا بالاستجابة لدعاء العباد؛ لذا روي أنه لمّا قال البزنطي للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «جُعلت فداك، إني قد سألت الله تبارك وتعالى حاجة منذ كذا وكذا سنة، وقد دخل قلبي من إبطائها شيء»، قال له الإمام عليه السلام: «أخبرني عنك لو أني قلتُ قولًا كنتَ تثق به مني؟» قال: «جعلتُ فداك، وإذا لم أثق بقولك فبمن أثق؟» قال عليه السلام: «فكن بالله أوثق، فإنك على موعد من الله، أليس الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾؟»[1]

وإذا كان هذا هكذا، فلا بد، إذًا، أن يكون عدم استجابة أدعيتنا في حالات كثيرة أو قليلة راجعًا إلينا نحن، فالله تعالى هو الكريم الذي لا يقف كرمه عند حدّ معيّن، وهو ذو الفضل العميم على عباده، وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «ما كان الله ليفتح لعبدٍ الدعاء فيغلق عنه باب الإجابة، الله أكرم من ذلك»[2]. نعم، لكننا نحن قد

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٥٣ - ٢٥٤.
(٢) نفسه ٣: ٢٥٣.

نغفل عن بعض شرائط استجابة الدعاء أو نهملها ولا نعطيها ما تستحقه منا من عناية، فنجد أننا لا يُستجاب لنا.

لقد دلّت النصوص الشرعية الروائية على مجموعة من الشرائط التي لا محيص عن توفيرها إذا كنا نرغب فعلًا في استجابة أدعيتنا، ومن هذه الشرائط ما يأتي:

الشرط الأول، معرفة المدعوّ (سبحانه):

مشكلة الكثيرين أنهم يرفعون أكفّ الدعاء إلى الله ﷻ من دون أن يعرفوه كما ينبغي، فيستلزم جهلُهم به الجهلَ بأسمائه الحسنى وصفاته وعدم اليقين الكافي بها، وهذا يجعل الأدعية كلها مجرد لقلقة لسانية لا تعرف لها طريقًا إلى قلب الداعي ولا توافي في نفسه إيمانًا صحيحًا بأنه تعالى مالك النفع والضر معًا، فكيف يُستجاب له؟ وقد ورد عن خاتم المرسلين ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ: من سألني وهو يعلم أني أضرّ وأنفع استجيب له»[1].

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٥٤.

إنّ الله سبحانه يريد من عباده أن يعرفوه، وأن تكون أدعيتهم مسبوقة بهذه المعرفة ومنبجسة منها، حتى لا تستحيل هاتيك الأدعية قشورًا شكلية خارجية لا تخفي وراءها أي لباب معرفي حقيقي. روي أنّ قومًا قالوا للإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ندعو فلا يستجاب لنا!» فأرشدهم عليه السلام إلى موضع الخلل بقوله: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه»[١]. وفي تفسيره عليه السلام لنهاية الآية التي هي محل كلامنا: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ روي عنه عليه السلام أنه قال: «يعلمون أني أقدر على أن أعطيهم ما يسألوني»[٢].

هذا التركيز المؤكد في الروايات على ضرورة أن يكون الداعي على معرفة بالمدعوّ (تعالى) يرسّخ في أذهاننا أهميةَ حصولنا على المعرفة الصحيحة بالعقائد الدينية من منابعها الصافية الصحيحة، فهذه المعرفة هي

(١) نفسه.
(٢) نفسه.

الأساس الذي تُبنى عليه علاقتنا بربنا (جلّت قدرته)، ومن دونها ليس لنا أن ننتظر لأدعيتنا أن تستجاب، ولا لحوائجنا أن تُقضى. وإنه لمن المؤسف بحق أن نجد عند أعداد غير قليلة من أبنائنا وبناتنا تقصيرًا واضحًا في هذا المجال، على ما يحملونه من شهادات علمية ويتصفون به من ثقافة عالية في المجالات الأخرى! فهم لا يستشعرون أهمية الجانب العقدي؛ لذا تجدهم غير مستعدين لتخصيص أي قدر من جهدهم أو إعطاء أي نصيب من وقتهم لدراسة العقيدة ومحاولة تحصيل معرفة كافية بها.

الشرط الثاني، الإقبال القلبي على الله (تعالى):

إذا كان أحدنا معرضًا بقلبه عن ربه، غير مستعد للإقبال عليه، فأنّى له أن ينتظر استجابة دعائه؟ إننا في حياتنا العملية نعرف جيدًا أنّ عدم إقبالنا على من نخاطبه من الناس وانشغالنا عنه بغيره يستوجب الإساءة إليه والتقصير في حقه، وليس لنا بعدئذ أن نتوقع منه الإنصات

إلينا وتحقيق مرادنا منه، فما بالنا لا نراعي ذلك في علاقتنا بربنا (جلّ شأنه)؟

وللإقبال القلبي على الله معنيان لا مناص من مراعاتهما:

المعنى الأول: الإقبال وقتَ الدعاء، بألّا يتشتت فكر الداعي هنا وهناك، بل يكون كل وجوده في حال الدعاء متوجهًا إلى ربه، غير منحرف عنه بقدر الوسع والإمكان، فقد ورد عن سيد الخلق ﷺ أنه قال: «لا يقبل الله عزّ وجلّ دعاء قلب ساه»[1]، وعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّ الله عزّ وجلّ لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساهٍ، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن بالإجابة»[2].

إنّ هذه الحقيقة تتطلب من الداعي أن يحرص، قبل الشروع في دعائه، على توفير كل الأسباب التي تستدعي حضوره الذهني، وعلى الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يسلبه الإقبال القلبي على ربه، وهذا يعني اختيار الزمان

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٥٧.
(٢) نفسه.

والمكان الملائمين للدعاء، وانتشال الفكر من كل الشواغل الدنيوية التي لا تني تفرض وجودها على الإنسان ليلَه ونهارَه، فبالإقبال الحقيقي يتحقق شرط مهم للاستجابة.

والمعنى الآخر: الإقبال على الله في كل جوانب الحياة، بمعنى عدم نسيانه، ويكون النسيان بأن ينغمس في طيبات الحياة الدنيا ولذائذها إلى الحد الذي تغيب معه عن فكره الأهداف السامية التي خُلق لأجلها، وتصبح الحياة عنده ركضًا وراء جمع الأموال والمناصب والأولاد وما إلى ذلك، دون أن يفكر يومًا في أنّ عليه أن يعمل لما بعد هذه الدنيا ويستعد للحياة الخالدة بما ينبغي لها، بل دون أن يستحضر في ذهنه أنّ ثمة ربًا كريمًا لا يصح الإعراض عنه أو نسيان وجوده، وقد نبّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على مدى فداحة نتيجة هذا حين قال: «من نسي الله سبحانه أنساه الله نفسه وأعمى قلبه»[1].

إنّ الاستجابة الإلهية لدعاء العبد تتطلب أن يكون هذا

(١) نفسه ٣: ٤٣٤.

العبد صادق التوجّه إلى ربه في دعائه، وقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ يشير - كما ذكر صاحب الميزان في تفسيره للآية - إلى أنه لا بد أن يتحقق في الداعي وصفُ الدعاء تحققًا صريحًا، ومن البيّن أنّ هذا لا يتحقق من قلبٍ ساهٍ غافلٍ عمن يخاطب في دعائه، سواء أكان هذا السهو في خصوص وقت الدعاء أم كان في جوانب الحياة العامة، على ما تقدم شرحه.

الشرط الثالث، جلب الرضا الإلهي:

إذا كان الإنسان راغبًا بالفعل في أن تُجاب دعوته فإنّ من البدهي الواضح أنّ عليه أن يتقرب إلى المدعوّ سبحانه وتعالى بأن يجتهد في تحصيل مراضيه وتجنّب معاصيه، وفي أقل تقدير عليه ألّا يظل خاضعًا لسلطان الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، فعن سيد الخلائق محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أحب أن يستجاب دعاؤه فليطيّب مطعمه ومكسبه»[1].

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٥٦.

وإنّ من العُجاب فعلًا أن يؤمل أحدنا من ربه الاستجابة لدعائه، والحال أنه لا يكفّ نفسه عن التردي في هوّة المعاصي يومًا بعد يوم، وساعةً بعد ساعة، ناسيًا ما تبانى عليه العقلاء في حياتهم الاجتماعية وسلوكهم العرفيّ، فهم إذا أرادوا من أحد إقبالًا واستماعًا تقرّبوا إليه بصنوف المجاملات وتجنبوا كل ما من شأنه أن يسيء إليه أو يسبب له أدنى امتعاض أو أذى. هكذا ما تقضي به الأفهام والأعراف عند البشر كافةً في تعاملاتهم الاجتماعية. فما بالنا، إذًا، ننسى كل هذا ونهمله في تعاملنا مع رب العزة تعالى؟ فترانا نؤمل منه الاستجابة في حينٍ نتوغل فيه في معاصيه ومخالفة أوامره.

لقد بلغت أهمية هذه القضية درجةً جعلت الرواياتِ الشريفة تربط بين إجابة دعوة المظلوم - وهي الدعوة ذات الشأن الكبير عند الله تعالى - وبين كون هذا المظلوم لم يرتكب في حق غيره مثل هذا الظلم الذي وقع عليه، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الله عزوجل يقول:

وعزتي وجلالي لا أجيب دعوة مظلوم دعاني في مظلمة ظُلمها ولأحد عنده مثل تلك المظلمة»[١].

وتزداد القضية جلاءً، ويتعمق أثرها في النفس، حين نقرأ القصة الآتية المروية عن الإمام الصادق عليه السلام:

«مرّ موسى بن عمران برجل من أصحابه وهو ساجد، فانصرف من حاجته وهو ساجد على حاله، فقال له موسى عليه السلام: لو كانت حاجتك بيدي لقضيتها لك، فأوحى الله عزوجل إليه: يا موسى، لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبلته حتى يتحول عما أكره إلى ما أحب»[٢].

الشرط الرابع، العمل والسعي:

توهّمَ بعض الناس أنّ الدعاء بديل عن العمل والسعي، فرأوه سببًا داعيًا إلى الكسل والسلبية والاستسلام وعدم الفاعلية في الحياة، حتى نُسب إلى

(١) نفسه ٣: ٢٥٨.
(٢) نفسه ٣: ٢٧٤.

الفيلسوف المعروف نيتشه أنه ذهب إلى أنّ المخجل حقًا أن ندعو!

والحقّ أنّ الدعاء لا معنى له ولا قيمة إذا فُهم على هذا النحو، فهو، في مصادره الإسلامية، ليس شيئًا ينوب عن العمل أو يسدّ مسدّه، بل هو تتمة وتتويج له، فالداعي عليه أن يجتهد ويبذل وُسعه ويتطلب الوسائل الطبيعية المتاحة للوصول إلى مراده، ويتوجه بعد ذلك إلى ربه سائلًا توفيقه وتسديده؛ كيما يؤتي جهدُه أثرَه ويحقق المرجوَ من ثماره. أما إذا اتخذ من الدعاء بديلًا عن العمل فسيكون خابطًا خبط عشواء، أو راقمًا يرقم على ماء، فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»[١].

وقد ورد في الروايات الشريفة أنّ من سعى إلى اتخاذ الدعاء طريقًا بديلًا عن العمل والسعي لا يستجاب له، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «أربعة لا يستجاب لهم دعاء:

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٥٥.

رجل جالس في بيته يقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالطلب؟ ورجل كانت له امرأة فدعا عليها، فيقول: ألم أجعل أمرها بيدك؟ ورجل كان له مال فأفسده فيقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالاقتصاد؟... ورجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة، فيقول: ألم آمرك بالشهادة؟»[1].

إنّ الإسلام دين العمل والنشاط والإبداع في الحياة، ولا يرتضي من أتباعه أن يتخذوا من علاقتهم بربهم «أفيونًا» يخدّرهم ويحول بينهم وبين الإبداع والإنتاج والعمل، لكنه يريدهم أن يؤمنوا بأنّ ربهم هو مسبب الأسباب، وبيده مقاليد الأمور كلها، وهو الذي يقدّر ويقضي، فهم مطالبون بالسعي والتماس كل الأسباب الطبيعية الموصلة لمرادهم، لكنهم - بعد العمل وقبله وفي أثنائه - ينبغي لهم سؤال ربهم أن يوفقهم ويسددهم وييسّر لهم بلوغ مراميهم بلطف عنايته وجميل قضائه، وبذا يكون

(١) نفسه ٣: ٢٧٤.

الدعاء تتمةً للعمل وسؤالًا لنجاعته وتأثيره، وليس بديلًا عنه أو قائمًا مقامه.

الشرط الأخير، طلب ما فيه الخير:

دلّت بعض النصوص الشرعية على أنّ الله سبحانه لا يستجيب دعاء عبده الداعي إذا كان قد دعا بشيء ليس فيه خير له، فقد روي أنّ الله قال في الزبور: «ابنَ آدم، تسألني فأمنعك لعلمي بما ينفعك، ثم تلحّ عليّ بالمسألة فأعطيك ما سألت فتستعين به على معصيتي، فأهمّ بهتك سترك، فتدعوني فأستر عليك، فكم من جميل أصنع معك، وكم من قبح تصنع معي، يوشك أن أغضب عليك غضبة لا أرضى بعدها أبدًا»[1].

نعم، إنّ الإنسان جهول بمصالحه، وهو فوق ذلك جهول بجهله هذا، وقد يقوده جهله المركّب هذا إلى أن

(١) نفسه ٣: ٢٧٦.

يطلب من ربه ما ليست فيه له أو لمجتمعه أو لأمته أو للبشرية والحياة مصلحة، لكنّ ربه رحيم به، وهو أرحم من الأم الرؤوم التي لا نتعقل أن تعطي طفلها الصغير أداة حادة ليلهو بها مهما ألحّ الطفل عليها في ذلك نتيجة جهله بمصالحه، ولأجل هذا لا يستجيب سبحانه وتعالى هذا الدعاء المنبجس من الجهل، ولربما يعطي عبده الداعي ما هو خير مما طلبه، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «ربما سألتَ الشيء فلا تؤتاه، وأوتيت خيرًا منه عاجلًا أو آجلًا، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلربّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله»[1].

وجوه أهمية الدعاء:

لا مراء في أنّ للدعاء منزلة خاصة وأهمية عظمى بين كل صنوف العبادات في الإسلام، وقد تحدثت عن ذلك

(١) نفسه ٣: ٢٧٧.

نصوص شرعية غير قليلة، منها مثلًا الحديث النبوي المعروف: «الدعاء مخ العبادة، ولا يهلك مع الدعاء أحد»[١]، والحديث الشريف الآخر: «أفضل العبادة الدعاء»[٢]، فما أهم وجوه أهمية الدعاء حتى كانت له هذه المنزلة الرفيعة المميزة؟

يمكن - بالرجوع إلى الروايات الشريفة - إبراز الوجوه الآتية:

الوجه الأول، الدعاء والمعرفة:

تقدم معنا أنّ من شرائط استجابة الدعاء معرفة المدعوّ، فلا يستجيب الله سبحانه دعاء من يدعوه من دون أن يعرفه، وفي هذه الحقيقة تحريك واضح للإنسان نحو أن يزداد معرفةً بربه إذا ما أراد لدعائه أن يتخذ طريقه نحو الاستجابة، ولا ريب أنّ المعرفة بالله تعالى حينما تتجذر وتتوسع كفيلة بجعل صاحبها يتشبث بالدعاء أكثر وأكثر؛

(١) نفسه ٣: ٢٤٥.
(٢) كنز العمال، المتقي الهندي، الحديث ٣١٣٤.

نظرًا لما قرّ في ذهنه وفؤاده من معرفة بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا؛ لذا نجد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «أعلم الناس بالله سبحانه أكثرهم له مسألةً»[١].

والنتيجة هي أنّ العلاقة بين الدعاء والمعرفة وثيقة من اتجاهين: فالدعاء يدفع نحو الاستزادة من المعرفة الإلهية، هكذا في نظرة مجملة، وإذا رجعنا إلى تفصيلات نصوص الأدعية المروية عن المعصومين عليهم السلام فسنحتاج إلى دراسات مستقلة موسّعة لمحاولة تتبّع القليل من الكثير العميق الذي تحمله لنا من معارف إلهية ودقائق عقدية.

وفي الاتجاه الآخر، نجد أنّ المعرفة الإلهية حينما تتوغل في النفس تدفع الإنسانَ دفعًا إلى اللجوء إلى الدعاء، فهكذا مقتضى الإيمان الحقيقي بالله سبحانه واليقين الراسخ بكونه مسبب الأسباب والفاعل لما يريد. جاء في بعض وصايا أمير المؤمنين علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «اعلم أنّ الذي بيده خزائن ملكوت الدنيا

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٤٦.

والآخرة قد أذن لدعائك، وتكفّل لإجابتك، وأمرك أن تسأله فيعطيك، وهو رحيم كريم، لم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يُلجئك إلى من يشفع لك إليه»[١].

الوجه الثاني، الدعاء والمحبة:

للدعاء صلة مباشرة بربط العبد مع ربه بعلاقة حب وثيقة، فالدعاء، كما هو واضح، عمل محبوب لله تعالى، بل هو أحب أعمال العبد، ففي الرواية عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «ما من شيء أحب إلى الله من أن يُسأل»[٢]. ولا ريب في أنّ العبد إذا واظب على العمل الذي يحبه الله سبحانه فإنّ من شأن ذلك أن يجعله محبوبًا عند ربه، وإذ ذاك يحب الله منه أن يدعوه، بل في بعض الروايات أنّ الله يؤخر الاستجابة له كي يكثر منه الدعاء ويتكرر، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ

(١) نفسه ٣: ٢٤٤.
(٢) نفسه ٣: ٢٤٦.

العبد ليدعو، فيقول الله ﷻ للملكين: قد استجبت له، ولكن احبسوه بحاجته، فإني أحب أن أسمع صوته، وإنّ العبد ليدعو فيقول الله تبارك وتعالى: عجلوا له حاجته، فإني أبغض صوته»[١].

هذا من جهة حب الله لعبده، أما من الجهة المقابلة فلا شك في كون مواظبة العبد على الدعاء وحرصه على التذلل والخضوع لربه منشأً لازدهار الحب في قلبه، حب العبد العارف بمقام ربه وسبوغ نعمائه وعظيم أفضاله، لربه ذي الكمال المطلق وصاحب الرحمة الواسعة والعطاء العميم والفضل الجزيل.

الوجه الثالث، الدعاء والإيجابية:

يكرّس الدعاء في نفوس الداعين أنّ في وسعهم أنْ يؤثروا في واقعهم ومصائرهم تأثيرًا إيجابيًا بواسطة أدعيتهم، فبإمكانهم أن يتسببوا في اتساع أرزاقهم وطول

(١) نفسه ٣: ٢٧٥.

أعمارهم وزيادة توفيقاتهم للخيرات وغير ذلك مما يرغبون فيه، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإنّ سلاح المؤمن الدعاء»[١].

نعم، هكذا يريد الإسلام لأتباعه أن يحملوا هذا الوعي الذي يشعر به كل إنسان بأنه قادر فعلًا - باللجوء إلى الدعاء - على أن يغيّر واقعه، ويرسم لنفسه وللناس من حوله مستقبلًا أفضل وواقعًا أجمل. وفي هذا ردّ، في الواقع، على العقيدة اليهودية القائلة: «يد الله مغلولة»! وهي العقيدة المحرّفة التي تنظر إلى الإنسان نظرة سلبية قاتمة، يكون فيها فاقدًا التأثيرَ في نفسه وأي شيء من حوله، فهو كالريشة في الأعاصير، أو القطرة في النهر، ليس له سوى أن ينصاع للقضاء والقدر دون أن يتمكن من تغيير أي شيء مما هو مرسوم ومحتوم من ذي قبل.

---

(١) نفسه ٣: ٢٤٧.

إنّ النظرة الإسلامية الحقيقية في هذا المجال تتجلى في قول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يردّ القضاء إلا الدعاء»[١]، وقول الإمام الباقر عليه السلام: «الدعاء يردّ القضاء بعدما أبرم إبرامًا»[٢]، وكذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا تقل إنّ الأمر قد فُرغ منه، إنّ عند الله منزلة لا تُنال إلا بمسألة»[٣].

ومن المعلوم أنّ هذه النظرة لا تتعارض مع الإيمان بالقضاء والقدر الإلهيين؛ ذلك أنّ هذا الإيمان يتضمن إيمانًا بلوحين إلهيين اثنين، هما: لوح المحو والإثبات، واللوح المحفوظ (أم الكتاب)، بناءً على الآية المباركة: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤]. ففي لوح المحو والإثبات تكون المقدّرات مشروطة، فيكون العمر الكذائي مقدّرًا لزيد إذا لم يدعُ مثلًا، فإذا دعا ربه

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٤٨.
(٢) نفسه ٣: ٢٤٧.
(٣) نفسه ٣: ٢٤٦.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

فإنّ هذا الدعاء سيصير سببًا لزيادة عمره، بأن يُمحى المقدّر السابق ويُثبت المقدّر الجديد، مع أنّ هذا الذي عبّرنا عنه بـ«الجديد» هو المقرّر أصلًا في «أم الكتاب»، أي في اللوح المحفوظ، وبذا لا تنافي أيضًا مع علم الله الأزلي بالمقدّرات والأشياء كلها.

الوجه الرابع، الدعاء والاطمئنان النفسي:

لئن كان معروفًا عن عصرنا هذا أنه عصر القلق والاضطراب والتوتر النفسي عند الإنسان، فإنّ من المعروف في المقابل، عند المسلمين وغيرهم، أنّ الارتباط بالله ﷻ والاشتغال بذكره يهب النفسَ البشرية حالة خاصة من الطمأنينة وراحة القلب، وذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

وما ثمة من شك في أنّ الدعاء هو مصداق واضح

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

وتجلٍّ عظيم لهذا الذكر، ففيه اللجوء إلى حضرة المولى الحقيقي ﷻ، ورفع أكفّ الضراعة والفقر إلى كرمه، وبثّ الشكوى والألم إليه، وطلب الحوائج والنواقص والرغائب منه، مع الاعتقاد العميق بأنه قريب يجيب دعوة داعيه، وأنه لا يريد لعباده إلا كل خير وسعادة بما يراه هو مصلحة قد لا ندركها نحن بعقولنا القاصرة وأفهامنا المحدودة. ولا ريب أنّ هذا كله عائد على النفس بتأثير كبير من اطمئنان وشعور بالراحة بمجرد حدوث الدعاء خارجًا، حتى إذا لم يتحقق المطلوب بعدُ. ولعلّ هذا المعنى أن يكون داخلًا ضمن إطلاق تعبير النبي ﷺ عن الدعاء بكونه سلاحًا: «سلاح المؤمن الدعاء»[١]، وتعبير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عنه بكونه ترسًا: «الدعاء ترس المؤمن»[٢].

ومثلما يكون الدعاء محقّقًا لطمأنينة القلب ورقّته،

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٤٧.
(٢) نفسه.

تكون رقّة القلب، في المقابل، داعيةً إلى الدعاء ومحرّكةً نحوه، وهذا يدل على مدى قوة الارتباط بين هذين الطرفين، أي بين الدعاء ورقّة القلب، فقد ورد عن رسول الله الأكرم ﷺ أنه قال: «اغتنموا الدعاء عند الرقّة فإنها رحمة»[١]، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إذا رقّ أحدكم فليدعُ، فإنّ القلب لا يرقّ حتى يخلص»[٢].

الوجه الخامس، الدعاء والحصانة:

يحتاج كل إنسان منّا، في مواجهة وساوس الشيطان الذي لا يني يسعى إلى إضلاله وفي جهاده الأكبر مع نفسه الأمّارة بالسوء، إلى اللجوء إلى حصن حصين يقيه ويحفظ له سلامة دينه وأخلاقه ويقوّي ارتباطه بخالقه عزّ وجلّ، وما أجدر بالدعاء أن يكون حصنًا من تلك الحصون الوثيقة التي يحتمي بها الإنسان في مسعاه الدائب الصادق لحماية

(١) نفسه ٣: ٢٥٧.
(٢) نفسه.

نفسه ودينه! لذا نقرأ في كلمات أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «أكثر من الدعاء تسلم من سورة الشيطان»[١].

إنّ أثر الدعاء في تقوية حصانة الإنسان وثباته أمام المغريات المحرّمة يتجلى من جهتين اثنتين:

الأولى: من جهة ما يستفاد من الروايات الشريفة من أنّ العبد الداعي يحوطه الله سبحانه برعايته ويغدق عليه من رحمته. ولا ريب أنّ هذا يستدعي أن يوفقه الله لكل خير وطاعة ويبعد عن طريقه أسباب المعاصي والهلاك، من دون إكراه له أو إجبار على سلوك أحد الطريقين. ورد في الحديث النبوي الشريف: «أفضل العبادة الدعاء، فإذا أذن الله للعبد في الدعاء فتح له باب الرحمة، إنه لن يهلك مع الدعاء أحد»[٢].

والجهة الأخرى: الدعاء هو، في عمق حقيقته، لجوء وجداني صادق وعميق إلى الخالق (جلّت قدرته) وإبداء من العبد لرغبته النفسية في طلب حوائجه من ربه، وإقرار

(١) نفسه ٣: ٢٤٦.
(٢) نفسه.

منه بتقصيره السابق، وتصريح بعزمه على إصلاح حاله وتحسين علاقته معه سبحانه في قابل الأيام. الدعاء، إذًا، هو تحقيق لعمق معنى العبودية في حياة الإنسان؛ لذا عدّه الرسول ﷺ أفضل العبادة: «أفضل العبادة الدعاء»[١]، وعدّه أيضًا مخ العبادة: «الدعاء مخّ العبادة، ولا يهلك مع الدعاء أحد»[٢]. وهذا معناه أنّ الدعاء، في حقيقته، ليس سوى انجذاب العبد إلى ربه وابتعاده عن كل ما هو من أسباب الابتعاد عنه سبحانه، وليست حصانة الإنسان أمام المغريات شيئًا غير هذا.

الوجه السادس، الدعاء وهموم الناس:

تعلّمنا التعليمات الإسلامية الواردة في باب الدعاء أنّ على الداعي أن يتخلى عن أنانيته وفردانيته حين يدخل رحاب الدعاء، فلا يكونن دعاؤه مقصورًا على ذاته وأهل

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٤٦.
(٢) نفسه ٣: ٢٤٥.

بيته فحسب، بل عليه أن يفكر في هموم الناس في مجتمعه وأمته، بل في العالم كله، وليكن دعاؤه لغيره مقدمًا على دعائه لنفسه، فعن الحبيب المصطفى ﷺ أنه قال: «إذا دعا أحدكم فليعمّم؛ فإنه أوجب للدعاء، ومن قدّم أربعين رجلًا من إخوانه قبل أن يدعو لنفسه استجيب له فيهم وفي نفسه»(١).

إنّ هذا الحثّ الديني على أن يستحضر الداعي هموم الآخرين في أشد حالات ارتباطه بربه عمقًا وروحانية ليجأر بما يطالبنا الإسلام به من نفسية تتعالى على الانغلاق على الذات والدائرة الضيقة لمطامحها ورغباتها، فتنطلق نحو الآخرين، متفهمةً رغباتهم، ومستحضرةً نقائصهم وحوائجهم، بل مقدمةً إياهم على نفسها، مثلما كانت سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام تفعل، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كانت فاطمة عليها السلام إذا دعت تدعو للمؤمنين والمؤمنات

(١) نفسه ٣: ٢٦٥.

ولا تدعو لنفسها، فقيل لها، فقالت: الجار ثم الدار»[١].

وإذا تربّى المسلم على أن يفكر في الآخرين حين يكون في أعمق حالات عبادته وخلوته بربه، فكيف سيكون سلوكه، إذًا، مع الناس من بعد ذلك؟ لا شك أنّ الدعاء سيترك أثره في ذلك السلوك ويهذبه ويشذبه بالنحو الذي يحقق مراد الله سبحانه.

الوجه السابع، الدعاء وتثقيل الميزان بالأعمال الصالحة:

لا غرو في أنّ الدعاء وسيلة مهمة لتثقيل العبد ميزانَه يوم القيامة بالأعمال الصالحة الراجحة، بل هو أهم الوسائل كما يستفاد من بعض الروايات، مثلما هي الحال مع الحديث النبوي الشريف: «ما من شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»[٢].

وتبلغ القضية الدرجة القصوى من الأهمية حينما

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٨١.
(٢) نفسه ٣: ٢٤٦.

تجعل الأحاديث الشريفة عملية الدعاء، في حد نفسها، موجبة لتفاوت مراتب العباد عند ربهم، على الرغم من تساويهم في أعمالهم الصالحة الأخرى، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «يدخل الجنة رجلان كانا يعملان عملًا واحدًا فيرى أحدهما صاحبه فوقه، فيقول: يا رب، بمَ أعطيته وكان عملنا واحدًا؟ فيقول الله تبارك وتعالى: سألني ولم تسألني»(١).

لقد فسّر الإمام الصادق عليه السلام مراد جده رسول الله ﷺ من هذا حين بيّن أنّ من لطف الله سبحانه بعباده وفضله عليهم ورحمته بهم أنه سيعدّ أدعيتهم في عداد الأعمال الصادرة عنهم؛ لذا تثقل موازينهم بزيادة تلكم الأدعية، فهي أعمال وليست أقوالًا مجردة. قال عليه السلام: «والله مصيّر دعاء المؤمنين يوم القيامة عملًا يزيدهم به الجنة»(٢).

(١) نفسه ٣: ٢٤٥.
(٢) نفسه ٣: ٢٤٦.

الوجه الثامن، الدعاء واستواء الحال في الشدة والرخاء:

من ديدن هذا الإنسان أنه يتذكر الدعاء واللجوء إلى ربه حينما يغرق في يمّ المشكلات ويصطدم بجبل الصعوبات في حياته، لكنه يميل إلى الغفلة عن ربه وتناسي وجوده حينما يتنعم برغد العيش، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[١].

من الوجوه البارزة لأهمية الدعاء أنه يعمل على تلافي هذه الحالة وتجاوزها، ودعوة العبد إلى أن يجعل من الرخاء والشدة حالين مستويين عنده، بلا فارق، في رجوعه إلى ربه في كل منهما، ورفعه كفي الضراعة والدعاء إليه ﷻ مهما اشتدت الأزمة أو اتسع الرخاء عنده. بذا يُثبت المؤمن صدق إيمانه وعمقه، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «ينبغي للمؤمن أن يكون دعاؤه في الرخاء نحوًا من دعائه في الشدة»[٢].

(١) سورة فصّلت، الآية: ٥١.
(٢) ميزان الحكمة ٣: ٢٥١.

إنّ مما ينبغي ألّا يغيب عن بال كلٍّ منّا أنّ دعاءنا في حال الرخاء والاستقرار والهناء كفيل باستجابة ربنا دعاءنا حينما ندعوه في حال الشدة والعناء والأزمة، وهذا ما صرّحت به أحاديث صريحة، فعن خاتم الأنبياء ﷺ أنه قال: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[١]، وورد أيضًا: «أوحى الله إلى داود صلوات الله عليه: اذكرني في أيام سرّائك حتى أستجيب لك في أيام ضرّائك»[٢]. ويفصّل الإمام الصادق عليه السلام الوجه في ذلك ويقرّب معناه إلى أذهاننا بقوله: «من تقدّم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء، وقالت الملائكة: صوت معروف، ولم يحجب عن السماء. ومن لم يتقدم في الدعاء لم يُستجب له إذا نزل به البلاء، وقالت الملائكة: إنّ ذا الصوت لا نعرفه»[٣].

(١) نفسه ٣: ٢٥٠.
(٢) نفسه ٣: ٢٥١.
(٣) أصول الكافي، الشيخ الكليني، ٢: ٢٥٩.

الوجه التاسع، الدعاء والارتباط بالله في كل الأشياء:

من شأن الدعاء أن يعمّق في وجدان الإنسان شعوره بفقره وحاجته إلى ربه الغني ذي الرحمة، فيزداد به ارتباطًا وإليه لجوءًا. وإنّ هذا الشعور كلما ترسخ في الوجدان جعل صاحبه لا يتردد ولا يتوقف عن سؤال ربه كل حاجاته واللجوء إليه في كل رغباته، حتى أصغرها وأقلّها شأنًا. وهذا ما حثّت عليه الروايات الشريفة الواردة في هذا السياق، فقد ورد أنّ الله تعالى أوحى إلى نبيّه موسى عليه السلام: «يا موسى، سلني كل ما تحتاج إليه، حتى علف شاتك وملح عجينك»[١]، وجاء في حديث نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «ليسأل أحدكم ربه حاجته، حتى يسأله الملح، وحتى يسأله شسعه»[٢]، وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «لا تحقّروا صغيرًا من حوائجكم، فإنّ أحب المؤمنين إلى الله أسألهم»[٣].

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٥١.
(٢) نفسه ٣: ٢٥٢.
(٣) نفسه.

الوجه الأخير، الدعاء والدفع نحو العمل:

تقدّم منّا بيان أنّ الدعاء ليس ينبغي أن يكون بديلًا عن العمل والسعي، وإلا كان لغوًا من القول، لا قيمة له ولا أثر، مثلما قال النبي ﷺ في الحديث الشريف المتقدم نقله: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»[١]. فلا بد، والحال هذه، من اجتماع الدعاء مع العمل كيما يتحقق الأثر المنشود ويُتوصل إلى الغاية المبتغاة.

ما نودّ بيانه هنا، في هذا الوجه الأخير من وجوه أهمية الدعاء، هو أنّ للدعاء أثرًا في إيجاد الدافع نحو العمل في وجدان الإنسان الداعي وصنع الحافز المحرّك له نحو السعي والحركة باتجاه المطلوب؛ ذلك أنّ الدعاء يعمّق في القلب استحضار عظمة المدعوّ، ويرسخ في الوجدان أنه - جلّت قدرته - مالك الملك، ومسبب الأسباب، وبيده مقاليد الأمور كلها، وكل شيء في هذا الوجود إنما هو بقضاء منه وقدَر، وليس ثمة من شك في

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٥٥.

أنّ تعمّق هذه المعاني وترسّخها في النفس كفيل بجعل صاحبها مطمئنًا إلى أنّ الله الكريم لن يردّه خائبًا دون أن يستجيب له دعاءه، وهو القائل عن نفسه: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١].

واستجابة الدعاء تعني أنّ مسبب الأسباب سييسّر له من تلكم الأسباب ما يكفل له الوصول إلى مراده وتحقيق رغبته أو رغباته. وإذا كان هذا هكذا فليس أمامه، إذًا، إلا أن يحثّ خطاه، ويشمّر عن ساعديه، وينفض عن كاهله غبار الكسل، فيأخذ بأسباب النجاح ويسير في طريق العمل والإبداع والإنتاج، متوكلًا على ربه القائل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٢].

ونتيجة ما تقدّم: أنّ الدعاء ليس فقط غير متنافٍ مع العمل، بل هو أيضًا دافع نحو العمل ومحرّك للمرء في طريقه. فهو، في حقيقته وواقعه، مولّد للحوافز الإبداعية ومنتج للنيّات التي تحرك أصحابها نحو الخير والعطاء والعمل الدائب الذي لا يعرف كللًا ولا مللًا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦. (٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.

٩ - لولا دعاؤكم

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[1].

تتوجه الآية الكريمة بخطابها إلى رسول الله ﷺ مطالبةً إياه بتبليغ حقيقة مهمة ودقيقة مفادها: ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، و«العبء» في اللغة هو الثقل، والمعنى هو أنّ ربي لا يقيم لكم ثقلًا أي وزنًا وقيمةً، أي أنه لا يهتم ولا يعتني بكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾.

وقد اختلف المفسرون في بيان المراد من ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ نتيجةً لاختلافهم في كون المصدر هنا - وهو

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٧.

كلمة «دعاء» - مضافًا إلى ضمير الفاعل أم إلى ضمير المفعول به، وبعبارة أخرى: اختلف المفسرون في أنّ المخاطبين المشار إليهم بالضمير «كم» أداعون هم أم مدعوون؟

وبناءً على هذا الاختلاف بينهم، نتجت في المقام ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: وهو مبني على كون المصدر مضافًا إلى ضمير المفعول به - وهذا ما اختاره صاحب الميزان في تفسيره للآية - وخلاصته أنّ الله تعالى لا يعتني بكم ولا يهتم لولا رغبته في دعوتكم إلى الحق، إقامةً للحجة عليكم أو أملًا في اهتدائكم وإيمانكم. وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ تعليل لعدم اعتداد الرب بكم، فتكذيبكم بالحق هو السبب في عدم اهتمامه سبحانه بكم، ثم إنّ تكذيبكم هذا سيكون ملازمًا لكم فتُجزون العذابَ الأليم.

والمعنى الثاني: وهو قائم على أساس كون المصدر مضافًا إلى ضمير الفاعل، وخلاصته: لا قيمة لكم عند

ربكم إلا بسبب الدعاء الذي يصدر منكم، وسيأتي الخلاف في المراد من هذا الدعاء.

والمعنى الأخير: وهو مستند إلى كون المصدر مضافًا إلى ضمير الفاعل أيضًا، ولكن بمعنى مختلف عما تقدم؛ ذلك أنّ المعنى هنا هو: لا يعبأ ربي بكم جميعًا لولا الدعاء الصادر من الصالحين المؤمنين منكم، فبناءً على هذا يكون مرجع الضمير في «بكم» عامًا مختلفًا عن المرجع الخاص للضمير في «دعاؤكم»، وهذا الاختلاف بين المرجعين هو الذي يتسبب في ضعف هذا المعنى الأخير. لكنه، مع هذا، معنى من المعاني المذكورة في المقام.

وثمة بين المفسرين الذاهبين إلى المعنيين الثاني والأخير كلام في المراد من «الدعاء» المذكور في الآية المباركة: فقيل هو الدعاء المتعارف، وقيل بل مطلق العبادة، وقيل التوحيد، وقيل الإيمان، وقيل الشكر لله تعالى. لكن بالرجوع إلى كلمات أهل البيت عليهم السلام - وأهل البيت أعرف بكتاب الله الذي نزل في بيتهم - يتبيّن

أنّ المراد هو الدعاء بمعناه المعروف، فمثلًا ورد أنّ الإمام محمدًا الباقر عليه السلام سُئل: كثرة القراءة (أي قراءة القرآن) أفضل أو كثرة الدعاء؟ فقال عليه السلام: «كثرة الدعاء أفضل»، وقرأ هذه الآية[١].

إنّ المعاني الثلاثة المذكورة آنفًا للآية المباركة لتدعونا إلى الاهتمام بالجوانب الآتية:

الجانب الأول:

لمّا كان اهتمام الرب بالناس قائمًا - بناءً على المعنى الأول المتقدم - على أساس رغبته في هدايتهم إلى الحق ودعوتهم إلى الصراط القويم، فإنّ من شأن هذا أن يدعونا إلى أن نجعل نحن أيضًا علاقاتنا مع غيرنا من الناس قائمةً على أساس المبدأ والحق، فنقترب منهم بالقدر الذي يدعونا الحق إليه، فتكون أواصرنا معهم مبنية على كوننا نؤمل أن نغنم منهم نور هداية نستفيد منه في حيواتنا أو أن نعطيهم نحن من ذلك النور ما من شأنه أن يساعدهم على

(١) الأمثل ١١: ٢٣٧.

حث خُطاهم في درب الهداية والرشاد. وفي سبيل الوصول إلى الهدى أو إيصاله إلى الآخرين، وفي طريق نصرة الحق يريدنا الإسلام أن نتحمل الصعاب ونتحدى المشكلات؛ كيما يتحقق لنا المراد، فذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «خض الغمرات إلى الحق حيث كان»[١].

أما إذا كانت العلاقة مع الآخرين غير ذات ارتباط بقضية الهدى والحق، وإنما كانت قائمة على أساس من الأسس الدنيوية الزائفة كالمال والجاه والشهرة وما أشبه ذلك، فهي علاقة لا تمتلك العمق الإيماني والرصيد الإلهي المطلوب، وما هي إلا علاقة فجّة سطحية، سرعان ما تنتهي بمجرد ما تضمحل المصلحة التي كانت الأساسَ في وجودها، مثلما يتلاشى الغبار المثار في الهواء بتوقّف الحركة الرعناء العنيفة التي أثارته.

هذا، مع أنّ العلاقات القائمة على المصالح

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٧٥.

والمطامع الدنيوية كثيرًا ما تكون على حساب ما يمتلكه أحدنا من رصيد إيماني وديني وخلقي، فنعطي من ديننا، ونتنازل عن جوانب من أخلاقنا وقيمنا بالقدر الذي تدعونا إليه مصالحنا الدنيوية إليه، فنكون بهذا مؤْثرين للباطل الزائل على الحق الباقي، مخالفين صراحةً ما يدعونا إليه الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله: «إنّ من حقيقة الإيمان أن تؤْثر الحق وإنْ ضرّك على الباطل وإنْ نفعك»(١).

إنّ الإسلام يسعى دومًا إلى أن تقوم الأواصر الاجتماعية بين أتباعه على خدمة الأهداف السامية التي خُلق البشر، بل الكون كله، لتحقيقها، فلا بد لهذه الأواصر أن تكون مُعينةً الناسَ على السير في طريق التكامل والترقي في مدارج السمو البشري وصولًا إلى رضوان الله تعالى والفوز بنعيمه الخالد الذي خصصه لعباده الصالحين المتقين. ومن هنا وجدنا التعليمات الدينية لا تشجع على إقامة تلكم العلاقات التي يكون

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٩.

منشؤها دنيويًا بحتًا، وتكون مسوّغاتها كلها متجلية في البحث عن الأنس الاجتماعي والتواصل مع الآخرين لأجل الحصول على مكاسب مادية أو منافع دنيوية في أي مجال من المجالات. فما هذه المسوّغات - في نظر الإسلام - إلا علامات دالة على استيلاء حب الدنيا على القلوب، وهذا أساس كل رذيلة وفساد. ثم إذا ما وجد الإسلام تلكم العلاقات الاجتماعية طريقًا مؤديًا إلى الانحراف والفساد فإنّ موقفه إزاءها يصبح أشدّ وآكد في المنع والردع عنها والحيلولة دونها، وكفى بذلك وازعًا لكل ذي نُهْية.

الجانب الثاني:

لا قيمة لنا عند ربنا إلا بسبب دعائنا، هذه القضية التي تقدّم بيانها بناءً على المعنى الثاني الآنف ذكره تستحق منا تأملًا عميقًا. هذا التأمل أساسه هو أنْ نعرف ما للدعاء من مكانة خاصة في المنظور الإلهي؛ لكي

نجعل له في حياتنا المكانة التي تليق به، أو تلك التي تقرب من ذلك.

إنّ هذه المكانة التي أوضحتها الآية المباركة لا ينبغي أن تقع منّا موقع التعجب، بلْهَ الاستبعاد، فهي المكانة المتناسبة حقًا مع الغاية من خلقنا. لقد صرّح القرآن بأننا إنما خُلقنا لعبادة ربنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١]. فإذا عرفنا موقع الدعاء من كامل المنظومة العظيمة المسماة «العبادة» لم يكن ثمة من معنى للتعجب من الأهمية الخاصة التي استأثر بها الدعاء في طبيعة علاقة الرب سبحانه بنا، وهذا الموقع تجلّي بعضَ أبعاده كلمةُ سيد العارفين بالله تعالى وهو رسوله الأكرم محمد ﷺ: «عمل البر كله نصف العبادة، والدعاء نصف»[٢]. نعم، الدعاء نصف العبادة التي خُلقنا لأجلها، أفيكون غريبًا ألّا يعتني بنا ربنا لولاه؟

ولمّا كان هذا هكذا، لم يكن غريبًا أيضًا أن يوصف

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) ميزان الحكمة ٣: ٢٤٦.

الدعاء بكونه أفضل العبادة، مثلما جاء في كلمة الإمام موسى الكاظم عليه السلام مثلًا: «وأفضل العبادة الدعاء»[١]. وحينما يكون الدعاء صادرًا من قلب مؤمن راغب بصدق في الارتباط بربه واللجوء إليه بالعبادة الصحيحة كما أرادها سبحانه، فإنّ الدعاء نفسه يكون خير حصن يحتمي به صاحبه من وساوس الشيطان وإغواءاته، كما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فيما روي عنه: أكثرْ من الدعاء تسلمْ من سَوْرة الشيطان»[٢]. وقد تقدم الكلام تفصيلًا، فيما سبق، عن وجوه أهمية الدعاء في الحياة.

الجانب الأخير:

يستثير المعنى الأخير للآية، مثلما مضى في شرحه، جانبًا على قدر كبير من الأهمية لا يصح منا التغافل عنه بحال. هذا الجانب هو ضرورة اهتمامنا البليغ بالصفوة

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٤٥.
(٢) نفسه ٣: ٢٤٦. و«السّوْرة» هي السطوة والشدة.

من عباد الله المتقين الأبرار، وفي مقدمتهم النبي الأعظم ﷺ والمعصومون من آله (عليهم صلوات الله وسلامه)، فببركات أدعية هؤلاء العظماء يعتني بنا ربنا سبحانه، ولولا وجودهم المبارك في الأمة لما كان لنا عند رب العزة موقع ولا شأن يقتضيان الاهتمام والعناية.

إنّ هذه القضية تستدعي، من جهة، أن يكون اهتمامنا بعظمائنا اهتمامًا عمليًا يبرز في سلوكنا وعملنا، فنتخذ منهم الأسوة الصالحة والقدوة الحسنة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]. ولولا هذا لبقي الاهتمام مجرد ادعاء خاوٍ أجوف، أو في أحسن الأحوال مجرد قشور ومظاهر خارجية سطحية لا تأثير واقعيًا لها في شخصياتنا وتكوينها.

ومن جهة أخرى، تستدعي القضية المذكورة أن نقف بجدية حقيقية أمام كل المساعي والمحاولات التي يقوم

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

بها شياطين الإنس والجن في هذا العالم - لا سيما في زماننا هذا الذي هو زمان التقدم الكبير لوسائل التواصل الاجتماعي والمحطات الفضائية ومواقع الشابكة (الإنترنت) - لجرّ أبنائنا وبناتنا إلى الاقتداء بشخصيات لا تستحق أن تُعطى من الأهمية والشهرة ما تُعطاه بسخاء هذه الأيام، كالرياضيين بعامة، ولاعبي كرة القدم بخاصة، وكأهل التمثيل والغناء والموسيقا مثلًا.

إنّ الإنسان المؤمن من وُكْده أن يبحث دومًا عن مزيد من الهدى؛ لأنه يدرك بوضوح أنّ هذه الدنيا هي مزرعة الآخرة، ولن يحصد في خاتمته إلا ما اجتهد في زرعه ورعايته في داره الأولى، ومن ثَمّ كان لزامًا عليه أن يسعى إلى الاقتداء بالمهتدين الحقيقيين، ويجعل من الهدى شعارًا له في كل شؤونه الكبيرة والصغيرة في الحياة، مثلما أوصاه سيّده الإمام أمير المتقين علي عليه السلام إذ قال: «ليكن شعارك الهدى»[1].

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٢١.

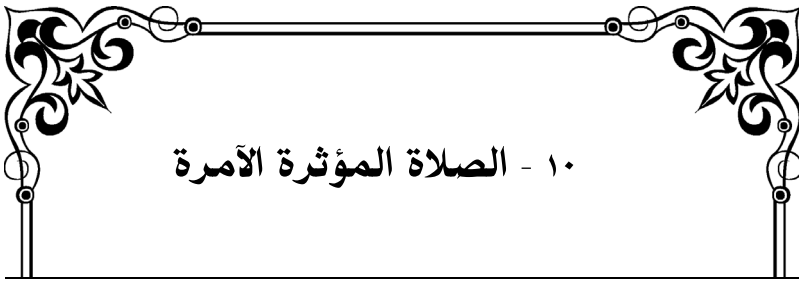

١٠ - الصلاة المؤثرة الآمرة

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[1].

تسترجع الآية الكريمة قولةً قالها ناس من أهل مدين لنبيهم شعيب عليه السلام بعد أن وجدوه لا يني يدعوهم إلى عبادة الله الواحد وترك عبادة الآلهة التي توارثوا عبادتها من آبائهم وأسلافهم ويدعوهم أيضًا إلى أداء حقوق الله والعباد من الأموال التي هي بين أيديهم، فما كان منهم إلا أن واجهوه باستنكار واستياء

(١) سورة هود، الآية: ٨٧.

وتكذيب قائلين: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ وقد استعملوا هنا استفهامًا إنكاريًا أرادوا به الاستهزاء والسخرية.

والظاهر من «صلاتك» أنّ المراد بها الصلاة المعروفة، وقد كانت مشرّعة للأمم السالفة أيضًا، وليس ثمة دليل يعضد ما نقله صاحب التفسير الأمثل عن بعضهم من أنّ المراد بها «إشارة إلى العقيدة والدين، لأنها عبارة عن المظهر البارز للدين»[1].

وأيًا ما كان الأمر، فقد خاطبوا نبيهم بلهجة ملأى بالسخرية، إذ سألوه عما إذا كانت صلاته التي يُكثر منها هي التي جعلته يدعوهم إلى توحيد الله وحسن التصرف بالأموال، مستندين في كلامهم إلى حجتين اثنتين:

الأولى: عدم صحة ترك المعتقدات والعادات والرسوم المتوارثة عن الآباء والأسلاف.

والأخرى: كون الأموال التي بين أيديهم هي أموالهم هم، فلهم كل الحرية في التصرف بها كيفما يشاؤون.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٧: ٢٩.

وبناءً على هاتين الحجتين الواهيتين كذّبوا شعيبًا عليه السلام، وختموا قولتهم له بهذا الخطاب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ الذي اختلف المفسرون في فهمه على وجهين اثنين:

أ - فمنهم[١] من اختار أنهم كانوا جادّين في خطابهم هذا، قاصدين أنّ شعيبًا متصف بهذين الوصفين فعلًا، وما دام الوضع كذلك فلا ينبغي له إذًا أن يتسرع في حكمه عليهم؛ لأنّ هذا ينافي أنه «الحليم»، كما لا يصح أيضًا أن يفعل أي شيء يتعارض مع العقل والحكمة؛ فهذا ينافي أنه «الرشيد».

ب - ومنهم[٢] من مال إلى كونهم لم يقصدوا اتصاف شعيب بهذين الوصفين على نحو الحقيقة، بل كان كلامهم من باب السخرية والاستهزاء، وقد قصدوا أنه متصف بعكس الوصفين المذكورين.

(١) مثل صاحب الميزان ١٠: ٣٦٦.
(٢) كصاحب «الأمثل» مثلًا ٧: ٣٠.

ومهما يكن، فثمة في الآية دلالات مهمة، نعرض لأهمها فيما يأتي:

الدلالة الأولى، الصلاة المؤثرة:

أهل مدين هؤلاء لم يسألوا شعيبًا عن الصلاة إلا لكونهم لاحظوه يُكثر منها من جهة، ولكونه كان يردد على مسامعهم: «إنّ الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكرات»[١] من جهة ثانية، وكونه، من الجهة الآخرة، دائبًا في المقام العملي على دعوة قومه إلى الحق والاستقامة، فربط هؤلاء الناس بين كل هذه الجهات؛ لذا ذكروا الصلاة في سؤالهم المستنكر الهازئ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ فهم على الرغم من استهزائهم هذا، يشيرون في كلامهم إلى نوع الصلاة التي كان شعيب يدعو إليها ويطبقها في حياته فعليًا، إنها الصلاة المؤثرة الفاعلة التي تغسل من روح صاحبها كل دَرَن محتمل، وتطهّر نفسه

(١) الأمثل ٧: ٢٩.

وقلبه من كل ضغينة وحقد وحسد وكراهية، وتربطه بالرحمة الإلهية وتسير به في طريق الهدى والانجذاب نحو النور الإلهي، فلا يبقى ثمة مجال لانخداعٍ بتسويل شيطان، ولا موضع إذ ذاك لإطاعة نفس أمارة بالسوء، فليس هناك سوى البحث عما يُزلف إلى الله تعالى ويجعل العبدَ أقرب إلى رضوانه وفضله؛ لذا ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «الصلاة حصن من سطوات الشيطان»[١].

أما تلك الصلاة التي يؤديها مسلمون كثيرون، ولا يبتغون من ورائها إلا إسقاط التكليف الشرعي بأي وجه كان، فلا يعيرونها ما تستحقه من اهتمامهم، ولا يأتون بها على ما يليق بها من وجهها المفترض، فهي صلاة في مستوى الأداء الظاهري حسبُ، وقد لا تخلو من الثواب والأجر عند الله تعالى، لكنها لن تكون مؤثرة في توجيه صاحبها نحو أعماقها ومعانيها الحقيقية، وبالنتيجة لن

(١) ميزان الحكمة ٥: ٣٦٧.

تحقق في حياته أثرًا ولن تدفع عنها سوءًا ولا معصية، فلا تترك لنفسها التأثير المرتجى منها. وعن مثل هذه الحالة ورد التحذير الشديد في الحديث النبوي الشريف: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعدًا»[١].

«الصلاة قربان كل تقيّ»، هكذا ورد وصفُها في نصوص شرعية متعددة[٢]، وليس ينبغي لأي عاقل بعد أن حظي بالتقرب إلى ربه والفوز بشرف الحضور في ساحة عز جلاله أن يرتضي لنفسه إسقاطها في هوّة المحرّمات والمنكرات التي تبعده عن فيوض القرب وتجرّده من نعيم الأنس بخالقه الرازق الودود، فليس شيء أشد للنفس غبنًا من هذا.

(١) ميزان الحكمة ٥: ٣٧٠.
(٢) يُراجع: ميزان الحكمة ٥: ٣٦٧- ٣٦٨.

الدلالة الثانية، سعة مجالات التأثير:

يتجلى من جزئيات التعبير الذي عبّر به قوم شعيب عليه السلام وعيُهم التام بما يمكن أن يكون للصلاة من تأثير واسع في مجالات مختلفة من حياة الإنسان المصلي وحياة مجتمعه من حوله، ويظهر هذا بوضوح بالتأمل في الألفاظ التي استعملوها:

- ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾: هذه إشارة منهم إلى التأثير الذاتي الفردي للصلاة، أي تأثيرها في المصلي نفسه، بنحوٍ تتمكن به من أن توجهه إلى وجهة ما وتحول بينه وبين السير في وجهة أخرى.

- ﴿أَن نَّتۡرُكَ﴾: وهذه إيماءة إلى التأثير الاجتماعي الواسع الذي ينضمّ إلى التأثير الفردي الذي سلف ذكره، فصلاة شعيب لا تقتصر على أن تؤثر فيه هو، حتى تتجاوزه إلى التأثير في مجتمعه من حوله، فهي تسعى إلى تحريك المجتمع كله صوب ما يريده الله سبحانه وتعالى.

- ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: هنا يبرز التأثير العَقَديّ للصلاة،

فهي ارتباط مباشر برب العزة وحده (جلّت قدرته) ونفيٌ لما سواه من معبودات متخيّلة لا واقع لها ولا أثر في عالم الألوهية والربوبية.

- ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾: وهذا هو التأثير العملي السلوكي المترتب على التأثير العقديّ، فمَن ترسخت في وجدانه عقيدة التوحيد لا مناص من أن تحرّكه، بعدئذ، نحو ما تقتضيه، من سعي في طريق طاعة الإله الواحد، وترك لكل ما من شأنه أن ينأى بالمرء عنه ويستجلب له سخطه.

إنّ تأثير الصلاة، إذًا، ليس محصورًا في جانب دون آخر، أو مقتصرًا على مجال عدا غيره. بل هو التأثير الواسع الذي لا حدود له: في المستوى الفردي، وفي المستوى الجمعي، في المعتقدات وفي السلوك. فليس من المستغرب، والحال هذه، أن تكون للصلاة كل هذه المنزلة الرفيعة في الدين، حتى جاء في الحديث النبوي الشريف: «مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود نفعت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر

العمود لم ينفع طنب ولا وتد ولا غشاء»[١]، وقد ورد أنّ الإمام الصادق عليه السلام سُئل: أي الأعمال هو أفضل بعد المعرفة؟ فأجاب عليه السلام: «ما من شيء بعد المعرفة يعدل هذه الصلاة»[٢].

الدلالة الثالثة، عرفان المنزلة الحقيقية للصلاة:

التعبير المستعمل في الآية يستحق، مرة أخرى، منّا التأمل لأجل ملاحظة دلالة مهمة من دلالاته، فقد استعملت هنا كلمة «الأمر»: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾ وفي موضع آخر من القرآن الكريم أُستعملت كلمة «النهي»: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[٣] ومن الثابت المعلوم أنّ الأمر والنهي لا يكونان بمعناهما الحقيقي إلا إذا كانا صادرين من العالي أو المستعلي،

(١) ميزان الحكمة ٥: ٣٦٩.
(٢) نفسه.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

وهذا يستلزم الدلالة على أنّ الصلاة لا تؤثر أثرها في حياتنا، ولا تؤتي أُكُلَها في كل حين، إلا إذا عددناها عاليةً فعلًا، بل أعلى منّا، وعرفنا منزلتها الحقيقية وشأنها الرفيع الخاص.

أما إذا لم يجعل أحدنا لصلاته هذا المقام، عملًا وسلوكًا، وإنْ عرفه نظريًا في مقام الوعي الفكري، فصار يتشاغل عنها بهذا الشاغل أو ذاك من مشاغله الدنيوية التي لا تكاد تنتهي، فهو إذ ذاك واقع في هوّة الاستخفاف بالصلاة، وهي الهوّة الخطيرة التي يتضح مدى خطورتها بالتأمل في الحديث النبوي الشريف: «ليس مني من استخف بالصلاة، لا يرد عليّ الحوض لا والله»[1].

إنّ رسولنا الأكرم محمدًا ﷺ قد علّمنا جميعًا بسلوكه كيف ينبغي لنا أن نحفظ للصلاة منزلتها بسلوكنا وعملنا كلما حان وقتها، فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يروي: «كان رسول الله ﷺ لا يؤثر على الصلاة عشاءً

(١) بحار الأنوار ٨٠: ٩.

ولا غيره، وكان إذا دخل وقتها كأنه لا يعرف أهلًا ولا حميمًا»[١]. وأين هذا السلوك النبوي الرفيع من سلوك بعض أبنائنا وبناتنا الذين لا يجدون في أنفسهم رادعًا يردعهم عن تأخير صلواتهم، حتى إلى درجة انقضاء أوقاتها كاملةً في أحايين، مشتغلين عنها ببعض شؤونهم كمتابعة مباراة رياضية مثلًا أو محادثة بالواتساب أو غيره من وسائل الإلهاء الاجتماعي أو التسوق أو ما إلى ذلك من شواغل لا تعدو أن تكون أمورًا تافهة إذا ما قورنت بعظمة الصلاة، بل ببعض عظمتها.

لقد حذّر الإمام جعفر الصادق عليه السلام من وخامة الاستخفاف بالصلاة أيما تحذير وفي أي توقيت؟ حين أراد نصح أهله، والناس جميعًا من خلالهم، وهو في لحظاته الأخيرة في هذه الدنيا، فعن أبي بصير قال: «دخلت على أم حميدة أعزيها بأبي عبد الله عليه السلام فبكت وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد، لو رأيت أبا عبد

(١) ميزان الحكمة ٥: ٣٦٧.

الله عليه السلام عند الموت لرأيت عجبًا: فتح عينيه، ثم قال: اجمعوا لي كل من بيني وبينه قرابة، قالت: فلم نترك أحدًا إلا جمعناه، قالت: فنظر إليهم، ثم قال: إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفًا بالصلاة»[١].

الدلالة الأخيرة، ضرورة أخذ الحذر:

في الآية إرشاد لنا إلى ضرورة أن نحذر أولئك الناس الذين قد نجدهم يشجعوننا على ترك الصلاة ومعطياتها، ويمتدحوننا لكي نترك. فهؤلاء هم، في الواقع، إما مستهزئون بنا وبصلاتنا، وإما جادّون في مدحهم لكي يحرمونا من الصلاة وآثارها الإيجابية العظيمة، وقد تقدمت معنا استفادة المفسرين هذين الوجهين من ختام كلام أهل مدين المنقول في الآية: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

إنّ العاقل منّا عليه ألّا يتقصد في حياته مدح الناس

(١) بحار الأنوار ٨٠: ١٩.

وثناءهم، فينقاد إلى حيث يعجبهم ويخوض مع الخائضين، فهذا أول الطريق المؤدي إلى الانحراف عن قصد السبيل السويّ، إذ أكثر ما يستجلب مدحَ الآخرين هو تحقيق رغباتهم وإشباع متطلباتهم، وليس إصابة الحق وتتبّع موارد رضوان رب العالمين؛ لذا نجد الإمام سيد الوصيين عليًا عليه السلام يحذّر من وخامة انتهاج هذا النهج بقوله: «كم من مغرور بحسن القول فيه، كم من مفتون بحسن الثناء عليه»(١).

وإذا وجد المرء في نفسه انجذابًا إلى دعوات أولئك الذين يزيّنون له تركَ الصلاة أو التهاون في شأنها فليعد إلى النصوص الشرعية القرآنية والروائية التي حذّرت تحذيرًا قلّ نظيره - إن وُجد له نظير أساسًا - من الاستخفاف بالصلاة. حسبُنا هنا أن نتأمل في الحديث الآتي المروي عن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام إذ سألت أباها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبتاه ما

(١) ميزان الحكمة ٩: ٨٣.

لمن تهاون بصلاته من الرجال والنساء؟» فقال ﷺ: «يا فاطمة، من تهاون بصلاته من الرجال والنساء ابتلاه الله بخمس عشرة خصلة: ستّ منها في دار الدنيا، وثلاث عند موته، وثلاث في قبره، وثلاث في القيامة إذا خرج من قبره. فأما اللواتي تصيبه في دار الدنيا فالأولى يرفع الله البركة من عمره، ويرفع الله البركة من رزقه، ويمحو الله عَزَّوَجَلَّ سيماء الصالحين من وجهه، وكل عمل يعمله لا يوجر عليه، ولا يرتفع دعاؤه إلى السماء، والسادسة ليس له حظ في دعاء الصالحين.

وأما اللواتي تصيبه عند موته فأولاهن أنه يموت ذليلًا، والثانية يموت جائعًا، والثالثة يموت عطشانًا، فلو سقي من أنهار الدنيا لم يروَ عطشُه.

وأما اللواتي تصيبه في قبره فأولاهن يوكّل الله به ملكًا يزعجه في قبره، والثانية يضيق عليه قبره، والثالثة تكون الظلمة في قبره.

وأما اللواتي تصيبه يوم القيامة إذا خرج من قبره

فأولاهن أن يوكّل الله به ملكًا يسحبه على وجهه والخلايق ينظرون إليه، والثانية يحاسب حسابًا شديدًا، والثالثة لا ينظر الله إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم»[١].

(١) بحار الأنوار ٨٠: ٢٢.

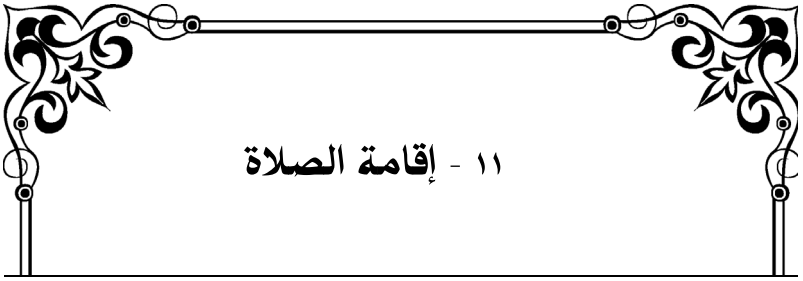

١١ - إقامة الصلاة

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]

سيكون نفلًا من القول أن يبدئ المرء ويعيد في الحديث عن منزلة الصلاة وفضلها في المنظور الإسلامي، فلها من المقام ما لا تستقصيه كلماتنا، ولا تنال عقولنا كنهه، كيف لا؟ وهي عمود الدين، وقربان كل تقي، ومعراج المؤمن، وأحب الأعمال إلى الله تعالى، وهي التي إن قُبلت قُبل ما سواها من الأعمال، وإن رُدّت لم يُقبل من العبد شيء من طاعاته، إلى غير ذلك من تعبيرات وبيانات سعت بها

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣١.

كلمات المعصومين عليهم السلام إلى تقريب منزلة الصلاة إلى أذهاننا القاصرة؛ لنعي جوانب من عظمة شأنها بقدر ما تتسع له قدراتنا الاستيعابية، وإلا فإدراك حقيقة تلك العظمة خارج عن مستطاعنا بلا ريب.

ما نودّ التوقف عنده هنا هو دلالة هذا التعبير الخاص الذي لا يفتأ القرآن الكريم يكرره في موارد ذكره للصلاة حاثًّا عليها، أو مادحًا للآتين بها، أو ذاكرًا فضلها، ذلكم هو التعبير بـ «الإقامة»: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فما معنى هذه «الإقامة»؟ وما الدلالة الخاصة التي تحملها هذه الكلمة حتى تكون أرجح، في الاستعمال القرآني، من الكلمات الأخرى التي قد تبدو لنا مشابهة لها كالإتيان بالصلاة، أو أدائها، على سبيل المثال؟

لقد ذكر العلماء والباحثون لـ«الإقامة» مجموعة من الدلالات، أهمها:

١ - الإقامة هي الأداء، وقد عُبّر عن الأداء بلفظ الإقامة لاشتمال الصلاة على القيام. وواضحٌ أنّ هذا القول لا يعطي للتعبير بالإقامة أية ميزة دلالية واضحة على

التعبير بالأداء، اللهم إلا إذا قلنا إنّ فيه إرشادًا إلى أهمية القيام في الصلاة وضرورته للقادر عليه. وعندئذ ينبري السؤال عن سرّ تميّز هذا القيام عن غيره من واجبات الصلاة كالركوع والسجود مثلًا، إضافةً إلى أنّ دعوى الترادف التام بين هاتين الكلمتين (الإقامة والأداء) المختلفتين في جذريهما الاشتقاقيين هي دعوى تحتاج إلى دليل يسندها.

٢ - الإقامة هي من قول العرب: «أقام العودَ» إذا قوّمه، فهي بمعنى تقويم الصلاة، أي الإتيان بها على الوجه الأكمل المطلوب، بكل شرائطها وآدابها وخصائصها، وحفظها من وقوع أي زيغ أو خلل فيها. إنّ الإقامة، بناءً على هذا، تستلزم الدلالة على ضرورة الاعتناء التام بالكيفية التي نؤدي الصلاة بها؛ ذلك أنّ مراعاة الكيفية كاشفة عن مدى الأهمية التي نوليها الصلاةَ وعن مقدار إدراكنا لموقعها الخاص المميز من الدين، بل عن قدر اهتمامنا بالدين نفسه.

روي أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أبصر رجلًا

ينقر بصلاته، فقال: «منذ كم صلّيتَ بهذه الصلاة؟» فقال الرجل: «منذ كذا وكذا»، فقال عليه السلام: «مَثلَك عند الله كمثل الغراب، لو متّ متّ على غير ملة أبي القاسم»، ثم قال علي عليه السلام: «إنّ أسرق الناس من سرق صلاته»[١].

٣ - الإقامة تعني المواظبة على الصلاة، من قول العرب: «أقامت السوق» إذا نَفَقَت. فمقيم الصلاة، بناءً على هذا المعنى، هو الذي يواظب على الصلاة في أوقاتها المحددة شرعًا، فلا يهملها ولا يتأخر عن أدائها في أوقاتها، مهما كثرت مشاغله وزادت أعماله الدنيوية وارتفعت أهميتها في نظره، فعن ابن مسعود أنه قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله (عز وجل) قال: الصلاة لوقتها»[٢]، وورد أيضًا عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «ما من عبد اهتم بمواقيت الصلاة ومواضع الشمس إلا ضمنتُ له الرَّوْح عند الموت، وانقطاع الهموم والأحزان، والنجاة من النار»[٣]، وعن

(١) ميزان الحكمة ٥: ٤٠٦.
(٢) سفينة البحار، الشيخ عباس القمي ٥: ١٥١.
(٣) نفسه ٥: ١٥٠.

الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قُبلت قُبل ما سواها، إنّ الصلاة إذا ارتفعت في وقتها رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة تقول: حفظتني حفظك الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة تقول: ضيّعتَني ضيّعك الله»[١].

٤ - إقامة الصلاة تعني التشمير لأدائها من غير فتور ولا توانٍ، وهذا المعنى مستمد من قول العرب: «قام بالأمر» إذا جدّ فيه وتجلّد. إنّ المؤمن الحقيقي إذا قام إلى الصلاة قام بكل نشاط ورغبة، دونما تكاسل وتراخٍ، فالتكاسل في الصلاة صرّح القرآن الكريم بكونه صفة من صفات المنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[٢] وليس مقبولًا من المؤمن أن يسمح لشيطانه ونفسه الأمارة بالسوء بأن يجعلاه يتصف بصفة المنافقين هذه. جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «لا

(١) نفسه ٥: ١٥١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

يقومنّ أحدكم في الصلاة متكاسلًا ولا ناعسًا، ولا يفكرن في نفسه، فإنه بين يدي ربه عَزَّوَجَلَّ ، وإنما للعبد من صلاته ما أقبل عليه منها بقلبه»[١].

إنّ كلمة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه لتفيد أنّ الكسل إنما ينتاب المصلي إذا غفل عن الإقبال على ربه في صلاته، فأما إذا صلى بإقبال وخشوع وتوجّه فلن يجد في نفسه إلا النشاط والأهبة على الوجه الصحيح للصلاة. وقد علّمنا خاتم المرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كيفية هذا الإقبال إذ قال: «صلّ صلاة مودّع، فإذا دخلتَ في الصلاة فقل هذا آخر صلاتي من الدنيا، وكن كأنّ الجنة بين يديك، والنار تحتك، وملك الموت وراءك، والأنبياء عن يمينك، والملائكة عن يسارك، والرب مطّلع عليك من فوقك، فانظر بين يدي من تقف ومن تناجي ومن ينظر إليك»[٢].

٥ - إقامة الصلاة هي بمعنى تحقيق وجود بارز لها

(١) ميزان الحكمة ٥: ٣٨٩.
(٢) سفينة البحار ٥: ١٥٨.

في المجتمع المسلم، بأن تتعدى الصلاة كونَها ممارسة عبادية فردية يؤديها الفرد المسلم تقربًا إلى ربه، لتصبح ظاهرة اجتماعية واضحة الظهور في الحياة الاجتماعية الإسلامية، وتكون شعارًا خاصًا يميّز المجتمع المسلم عما سواه من المجتمعات البشرية. وهذا المعنى نفسه - أي الوجود الاجتماعي البارز - وارد في كلمة «الإقامة» في موارد استعمالها القرآني في غير الصلاة أيضًا: كإقامة الشهادة، وإقامة الوزن بالقسط، وإقامة الدين، وإقامة حدود الله تعالى[١].

إنّ هذه المعاني المنقولة لـ«إقامة الصلاة» تستدعي، في المقام، مجموعة من الاستيحاءات:

الاستيحاء الأول:

إنّ إيمان المسلم بأهمية صلاته وموقعها الرفيع المميز

(١) هذا المعنى الأخير منقول بتصرف عن كتاب الشيخ علي الكوراني: فلسفة الصلاة ص١٢٩، كما أنّ المعاني الأربعة التي سبقته منقولة عن كتاب الشيخ الطريحي: مجمع البحرين، المجلد الأخير ص١٤١.

بين كل العبادات الشرعية يجب ألّا يتوقف عند الإيمان النظري وحده، بل لا بد أن يبرز بروزًا عمليًا، فيظهر هذا الإيمان بالأهمية في التعلّق القلبي بالصلاة، بأن ينجذب المسلم إليها انجذابًا وجدانيًا صادقًا، مثلما ينجذب المحب لمحبوبه، بل أشد. هكذا كان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم القائل عن نفسه الشريفة: «جعل الله جلّ ثناؤه قرة عيني في الصلاة، وحبّب إليّ الصلاة كما حبّب إلى الجائع الطعام، وإلى الظمآن الماء، وإنّ الجائع إذا أكل شبع، وإنّ الظمآن إذا شرب روّى، وأنا لا أشبع من الصلاة»(١).

ثم إنّ هذا التعلق القلبي لا بد أن يتمثل في السلوك الخارجي العملي إزاء الصلاة، فلا يقدّم المسلم عليها أي شيء إذا حان وقتها، ولا يشتغل عنها بأي شاغل، مهما عظمت أهميته وعلا شأنه. هذا أمير المؤمنين علي عليه السلام يضرب لنا أعلى الأمثلة على ذلك، فقد روي عنه: «لمّا كان علي عليه السلام يومًا في حرب صفين مشتغلًا بالحرب

(١) ميزان الحكمة ٥: ٣٦٧.

والقتال وهو مع ذلك بين الصفّين يراقب الشمس، فقال له ابن عباس: وهل هذا وقت صلاة؟ إنّ عندنا لشُغلًا بالقتال عن الصلاة، فقال عليه السلام: على ما نقاتلهم؟ إنما نقاتلهم على الصلاة، قال: ولم يترك صلاة الليل قط، حتى ليلة الهرير»[١]. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الشأن: «امتحنوا شيعتنا عند مواقيت الصلاة، كيف محافظتهم عليها؟»[٢].

الاستيحاء الثاني:

على المسلم أن يتعلم أنّ الأهمية التي تجعله يقدّم عملًا على عمل وشيئًا على شيء إنما هي الأهمية في نظر الله سبحانه وتعالى مهمًا عليّ أن أتخذه مهمًا، وما يجده أهمّ ليس لي مناص من أن أعدّه أهمّ كذلك، مهما كان الاتجاه الذي يميل إليه مزاجي الشخصي أو رأيي الذاتي، وهذا المعنى

(١) سفينة البحار ٥: ١٥١.
(٢) نفسه.

مستفاد من تعبير الآية الشريفة المذكورة في البدء: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فالخطاب هنا إنما هو لأولئك الناس الذين يتصفون في حياتهم بأنهم «عبادي»، فعبوديتهم لربهم حاضرة في شخصياتهم، وستجعلهم هذه العبودية الحقة يختارون، لا محالة، ما يدعوهم إليه ربهم المعبود المطاع. ثم إنهم «الذين آمنوا»، فإيمانهم يستدعي يقينهم بأنهم لن يخطئوا الحق والرشاد إذا ما انصاعوا لما يطلبه منهم خالقهم الرحيم بهم؛ لذا فهم أبدًا على نهجه يسيرون، ولمرضاته يتعرضون، فلا أهم عندهم من إقامة صلاتهم؛ لأنّ ربهم دلّهم على أهميتها، وليس من شأنه - سبحانه - إلا أن يدلّهم على ما هو لهم أصلح، ولشأنهم أجدى وأنفع.

إنّ مشكلة الكثيرين أنهم يعطون لأنفسهم الحق في أن يضعوا للأشياء والأفعال الأهمية التي يرونها لها، على الرغم من يقينهم بأنّ للدين رأيًا مخالفًا لما يرون، فلا يتورعون عن التجاهر بمخالفتهم للأحكام الشرعية، ولا يمتنعون عن التعدي على حرمة الشرع وربما على رموزه

وشخصياته أيضًا. كل ذلك بحجة أنّ لهم آراءهم الخاصة التي يجب على الجميع أن يحترمها، وليس يصح لأي موجود أو أية جهة أن تقف أمام تلكم الآراء، حتى للشرع نفسه!

هذا، مع أنهم لو عادوا إلى النصوص الشرعية، بعقول منفتحة ونفوس هادئة، لوجدوها ترشدهم إلى ما في أحكام الدين من رعاية تامة لمصالحهم الحقيقية التي قد لا يدركونها على وجهها الصحيح، فقد «خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: يا أيها الناس، والله ما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه»[١]، وورد في وصية أمير المؤمنين علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «إنه - يعني الله سبحانه - لم يأمرك إلا بحسن، ولم ينهك إلا عن قبيح»[٢].

(١) ميزان الحكمة ٥: ٥٦٧.
(٢) نفسه.

الاستيحاء الثالث:

إنّ رغبة الإسلام في جعل الصلاة ظاهرة اجتماعية لتكشف عن مدى حرصه على تعميق الشعور عند الفرد المسلم بانتمائه إلى المجتمع المسلم، فهذا المجتمع الذي تغدو فيه صلاتك ظاهرة اجتماعية هو مجتمعك يا أيها المسلم، وعليك أن تتمسك به بكل إمكاناتك، وتسعى إلى الارتباط به أشد ما يكون الارتباط، فتحرص على كل ما فيه الخير له، وتبذل قصارى وسعك لنشر الخير والهدى والصلاح في أرجائه، والصلاة تأتي في مقدمة ذلك كله. جاء في التفسير الأمثل في هذا الصدد: «إنّ العبادة - خاصة الصلاة - تقوم على أساس الجمع والجماعة، وعلى العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع والجماعة حتى حين يقف متضرعًا بين يدي الله، فما بالك في المجالات الأخرى؟ وهذا الاتجاه في العبادة يعني رفض الإسلام لكل ألوان الفردية والانعزال. الصلاة خاصة - ابتداء من أذانها وإقامتها حتى تسليمها - تدل على أنّ هذه العبادة هي في الأصل ذات جانب اجتماعي،

أي أنها ينبغي أن تؤدى بشكل جماعة. صحيح أنّ الصلاة فرادى صحيحة في الإسلام، لكن العبادة الفردية ذات طابع فردي ثانوي»[١].

لقد تجلى الاهتمام الإسلامي بالارتباط الاجتماعي في تركيز الروايات الشريفة على أهمية الجماعة في حياة المسلمين، فمن ذلك مثلًا ما روي عن الرسول المصطفى ﷺ: «عليكم بالجماعة، فإنّ يد الله مع الجماعة، ولم يجمع الله عزّوجلّ أمتي إلا على هدى»[٢].

ويتوسع نطاق هذه الجماعة التي ينبغي للفرد الاهتمام بها حتى تشمل المسلمين جميعًا، ففي الحديث النبوي المشهور: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلًا ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»[٣].

بيد أنّ من المهم هنا أن نستحضر كون أهمية الجماعة

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١: ٤٢.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ٦٧.
(٣) أصول الكافي ٢: ١٠٢.

في المنظور الإسلامي نابعة من التمسك بالحق، فبهذا المنبع وحده تكتسب الجماعة منزلتها ومكانتها، وإلا فلا أهمية لها، فقد قيل لرسول الله ﷺ: «ما جماعة أمتك؟» فقال: «من كان على الحق وإن كانوا عشرة»[١]، وسُئل الإمام علي عليه السلام عن تفسير السنة والبدعة والجماعة والفرقة، فقال: «السنة والله سنة محمد ﷺ، والبدعة ما فارقها، والجماعة والله مجامعة أهل الحق وإن قلّوا، والفرقة مجامعة أهل الباطل وإن كثروا»[٢].

الاستيحاء الأخير:

أنْ تكون الصلاة ظاهرة اجتماعية ذات وجود بارز في المجتمع المسلم، هذا يكشف عن حرص الإسلام على أن تكون واجهة المجتمع المسلم واجهة معبّرة عن الانتماء الديني الصحيح لذلك المجتمع، فعن الإمام

(١) ميزان الحكمة ٢: ٦٧.
(٢) نفسه.

الصادق عليه السلام أنه قال: «لكل شيء وجه، ووجه دينكم الصلاة»[١].

وما أعظمه من فارق! ذاك الذي يتجلى بين مجتمعين اثنين: مجتمع مسلم يزوره الغريب عنه، فيرى واجهته متمثلة في حرص أهله على الصلاة في أبهى صورها، أي بكل آدابها ومستحباتها، وفي أول وقتها، وفي المساجد العامرة بالمصلين من كل الأعمار المتفاوتة كافة، ويتجول في أنحاء ذلك المجتمع فلا تقع عيناه ولا تلتقط أذناه إلا تجليات الأمانة والصدق والتعاون والأخلاق وحجاب المرأة. ومجتمع آخر يوصف بأنه مسلم أيضًا، لكن لا يرى زائره فيه ولا يسمع إلا آثار الابتعاد عن الدين والتعدي على الأحكام الشرعية، فتباع فيه الخمور وتُشرى جهارًا نهارًا، وتنفلت فيه العلاقات بين الجنسين من ضوابطها الشرعية، وتنتشر مظاهر الإسراف والتبذير في كثير من المناسبات الاجتماعية والممارسات العادية

(١) نفسه ٥: ٣٦٦.

المألوفة! وتتحكم المعاملات الربوية والتعدي على حقوق الآخرين في كل جوانب ذاك المجتمع.

إنّ اهتمام الإسلام بصلاح واجهة المجتمع المسلم منبعثة من حرصه الأكيد على سير أبنائه على الدوام في طريق الهدى والرشاد والصلاح. رُويَ أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأله عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]. فقال عليه السلام: «من أخرجها من ضلال إلى هدى فكأنما أحياها، ومن أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها»[2].

وإذا كان هذا هكذا فيما يرتبط بالنفس البشرية الواحدة، فكيف يكون الحال حينما نتحدث عن مجتمع إسلامي كامل يريد الإسلام هدايته وإبعاده عن كل ما يتنافى مع هذه الهداية؟

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.
(٢) أصول الكافي ٢: ١٣٠.

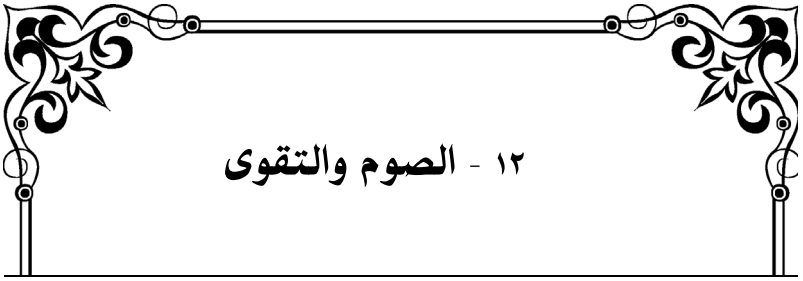

١٢ - الصوم والتقوى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(١).

جاءت هذه الآية الكريمة داعيةً المؤمنين إلى عبادة من العبادات الأساسية في الإسلام، وهي عبادة الصوم، مستهلةً خطابها بـ «يا أيها الذين آمنوا» مذكّرةً به المؤمنين بالمنطلق الإيماني الذي ينبغي أن يكون دافعَهم ومحركَهم نحو امتثال التكاليف الإلهية الشرعية الإلهية. والفعل المبني للمجهول «كُتب» هو من الكتابة، ومعناها معروف، لكنها هنا - كما ذكر المفسرون - كناية

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

عن الفرض والعزيمة والإلزام والقضاء الحتم. هذا الصيام، إذًا، فُرض على هذه الأمة، أمة محمد ﷺ، مثلما كان قد فُرض من قبل على الذين سبقوهم في الوجود التاريخي. والحديث عن الفرض على السابقين هو إشارة إلى تشريع أصل الصيام بالنسبة إلى الجميع، دون أن يعني ذلك الاتفاقَ والتطابقَ في كل ما يتعلق بشروطه وكيفياته وأحكامه التفصيلية.

لكن، مَن الذين قصدهم القرآنُ الكريم في حديثه عن «الذين من قبلكم»؟

تعددت أقوال المفسرين هنا:

فقيل: هم الأمم السابقة من الملليين، أي أهل الكتاب بنحو عام.

وقيل: خصوص اليهود والنصارى.

وقيل أيضًا: النصارى على وجه أخص.

وقيل كذلك: السابقون من الأنبياء دون أممهم.

وأيًا ما كان الأمر، فقد اختتمت الآية الشريفة بهذا

التعبير اللافت: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقد ذكر له الفخر الرازي وجوهًا:

١ - «لعلّ» هنا تعليلية بمعنى «كي»، أي أن الصوم فرضه الله علينا كي نكون به من المتقين، فهو يردعنا عن ارتكاب المحارم والفواحش.

٢ - المعنى: ينبغي لكم بالصوم أن يقوى رجاؤكم في التقوى.

٣ - المعنى: لعلكم تتقون الله بصومكم وترككم الشهوات، فالصوم يجعلنا نترك الطعام والنكاح - وهما أشد ما ترغب فيه النفس - طاعةً لربنا، فإذا سهل علينا هذا كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أسهل وأخف.

٤ - المراد: لعلكم تتقون إهمال هذه الفريضة الإلهية وهي الصيام، وتتقون عدم المحافظة عليها، انطلاقًا من عظيم منزلتها عند الله ورفعة مكانتها.

٥ - المقصود: لعلكم تدخلون بسبب هذه العبادة (الصيام) في عداد المتقين؛ لأنّ الصوم شعارهم.

وبعد، ففي الآية المباركة عطاءات، حريٌّ بنا أن نغنمها منها:

العطاء الأول:

الإيمان هو الأساس الذي ينطلق منه المؤمن في تعامله مع الأحكام الشرعية، فهذا الإيمان هو الذي يجعله يوقن بأنّ تلكم الأحكام ليس من الممكن أن تكون اعتباطية جزافية بلا غاية، ما دام واضعها هو الحكيم الذي لا يلهو، وليس يُعقل كذلك أن تقوده إلى ضرره أو أن تنتقص من فائدته، فمشرّعها لا يريد له إلا الخير، فهو الرحمن الرحيم بعباده، ولا يمكن أيضًا أن تكون هذه الأحكام خارجة عن طوق إرادته أو متعالية على قدر وُسْعه، فمصدرها هو الله الذي لا يكلّف نفسًا إلا وُسْعها.

ما الذي يظل يمنع المؤمن، إذًا، من الانقياد لأوامر ربه والانصياع لإرادته الحكيمة ما دام إيمانه يدعوه إلى الطاعة ويُلزمه بسلوك طريق العبادة؟ ليس يبقى سوى شيطانه يزيّن له المعصية، ونفسه الأمارة بالسوء التي

تشجعه على تعدي حدود الله وتحدي سلطانه. وأية جهالة أدهى وأي شقاء أوخم عاقبةً من هذا؟

إنّ الإيمان إذا تجذر في النفوس حقًا، ولم يكن مجرد شعار يُرفع أو مظهر خارجي خاوٍ، كان كفيلًا، من جهة، ببعث هذه النفوس نحو امتثال الأحكام الشرعية وتنفيذها بلا تردد ولا توانٍ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[١]. ومن جهة أخرى يكون إتيان المؤمن بالأعمال الصالحة وحرصه الدائب على تنفيذ ما جاء به الدين من أحكام شرعية دليلًا على صدق إيمانه وعمقه في نفسه؛ لذا كان الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ناظرًا إلى الجهتين المذكورتين معًا إذ قال: «بالإيمان يُستدل على الصالحات، وبالصالحات يُستدل على الإيمان»[٢].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.
(٢) ميزان الحكمة ١: ٢٩٩.

العطاء الثاني:

جعلُ الآيةِ المباركةِ «التقوى» غرضًا رئيسًا لتشريع الصيام، من شأنه أن يعلّمنا ضرورة الحرص على أن يكون صومنا مقبولًا حقيقةً عند الله تعالى، بمعنى أن نتخطى مرحلة الحرص على صحة الصوم وإبرائه لذممنا من ناحية وجوب القضاء أو دفع الكفارة أو ما شابه ذلك، إلى مرحلة التفكير في كونه مقبولًا حقًا منّا. فالصائم مطلوب منه قطعًا أن يتوثق من امتثاله لكل ما تتطلبه منه الأحكام الشرعية الفقهية فيما يتعلق بنيّة الصوم وترك كل المفطرات المنهيّ عنها في حالته، وضرورة التقيّد بكل الجزئيات والتفصيلات التي حدّدها الشرع لأجل أن يكون الصوم صحيحًا، لكن لا ينبغي لهمّة المؤمن أن تقف عند هذا الحد لا تتخطاه، بل عليها أن تبحث عن كل ما من شأنه أن يكون دخيلًا في أن يكون الصوم مقبولًا عند ربنا (جلّت قدرته)، وأهم ذلك أن يحرص الصائم على اجتناب كل المحرمات مثلما يتجنب كل المفطرات، فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «الصيام اجتناب

المحارم كما يمتنع الرجل من الطعام والشراب»[١]، ولولا هذا لظلّ الصوم عملًا بلا نتيجة، وفعلًا بلا أثر، وهذا ما نبّه عليه رسول الله ﷺ بقوله: «رُبّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورُبّ قائم حظه من قيامه السهر»[٢]، ونبّه عليه الإمام علي عليه السلام أيضًا إذ قال: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا العناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم»[٣].

ونقرأ في السيرة النبوية الشريفة مواقف بيّن فيها ﷺ هذا المعنى للناس بنحوٍ عملي تطبيقي، فمن ذلك ما رواه الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام: «سمع رسول الله ﷺ امرأة تسابّ جارية لها وهي صائمة، فدعا رسول الله بطعام فقال لها: كلي، فقالت: أنا صائمة يا رسول الله، فقال: كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريتك؟ إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب، وإنما جعل الله ذلك حجابًا

(١) ميزان الحكمة ٥: ٤٦٩.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.

عن سواهما من الفواحش من الفعل والقول يفطّر الصائم، ما أقلّ الصوّام وأكثر الجوّاع!»[١]

العطاء الثالث:

آنَ لنا، بعد ما تقدم بيانه، أن نسأل عن كيفية تحقيق الصوم للتقوى، فما الآثار التي يتركها الصوم الحقيقي في النفس البشرية حتى يسير بها نحو هذه النتيجة الكبرى التي نسميها التقوى؟

إنّ أهم هذه الآثار تتجلى فيما يأتي:

أ - **تلطيف روح الإنسان**؛ ذلك أنّ ترك الطعام والشراب والممارسات الجنسية وسائر المفطرات في نهار الصوم يُعدّ نوعَ تشبّهٍ من هذا الإنسان بالملائكة، تلك المخلوقات النورانية المطيعة لربها والمنفذة لأوامره والممتثلة لإرادته بكل دقة، فهي مخلوقات متسامية عن

(١) نفسه ٥: ٤٧٢.

مستوى الأكل والشرب والتلذذ الجنسي، وليست لذتها إلا في سلوكها مسلك الطاعة لربها، والصائم حينما يترك تلكم الملذات المباحة له في الأصل يتشبه بالملائكة من جهة تركه الاستجابة لما يريده جسده، ولو لساعات فقط، وفي هذا تربيةٌ له على الاهتمام بروحه وعباداته أكثر من اهتمامه بتلبية كل رغباته المادية الحسية.

ووجه آخر من وجوه تلطيف الصوم لروح الإنسان، وهو أنّ الجوع والعطش في نهار الصوم ينبغي لهما أن يذكّراه بالآخرة، فيستحضر ذلك اليوم العصيب، ولا يغفل عن أهواله التي تجعل كل مرضعة تذهل عما أرضعت، ولا ريب في أنّ استحضار الآخرة طريق نحو سريان روح التقوى في الوجدان، وقد تحدث الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن هذا الجانب بكل وضوح إذ قال: «. . . فإن قال: فلمَ أُمروا بالصوم؟ قيل: لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلوا على فقر الآخرة. . .»[1].

(١) ميزان الحكمة ٥: ٤٦٥.

ب - **تقوية الإرادة**، فكون المرء يترك المباحات الأصلية إطاعةً لأمر ربه يعطيه، بلا ريب، العزم والإرادة على ترك المحرمات التي منعه ربه من الاقتراب منها أصلًا؛ لذا يعطيه ﷻ من النعيم الأخروي أضعافًا مضاعفة لما تركه في هذه الدنيا في نهار الصوم من طيبات محللة له في الأساس، فعن خاتم الأنبياء محمد ﷺ: «من منعه الصوم من طعام يشتهيه كان حقًا على الله أن يطعمه من طعام الجنة ويسقيه من شرابها»[1].

أجل، ولا مراء في أنّ سلوك طريق التقوى يحتاج فيه المرء إلى إرادة قوية تستطيع أن تلجم النفسَ الأمارة بالسوء، فلا تتقحم بصاحبها في الهلكات، وتتمكن من ردع الشيطان الرجيم، فينقلب على عقبيه خاسئًا عاجزًا عن إغواء العبد السائر بصدق في طريق التقوى.

ج - **التحكم في الغرائز**؛ ذلك أنّ الغرائز الحيوانية الموجودة في الإنسان مخلوقة على أساس ألّا تقف عند

(١) نفسه ٥: ٤٦٩.

حد معيّن أو درجة ثابتة، فكلما أشبعها صاحبها سألته: «هل من مزيد؟» ومهما لبّى لها رغباتها ظلت تطلب ما هو أكثر وأبعد، مثلما قال الشاعر:

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وهذه الحالة من الإقبال النهم على إشباع الغرائز وتلبية الحاجات الشهوية حالة خطرة على الإنسان، وإن بقيت في دائرة المباحات والمحللات؛ لأنها إذا زادت ثورتها واشتد سعارها، فلن تقنع بالبقاء في تلك الدائرة وحدها، بل سرعان ما ستشرئب بأعناقها إلى دائرة المحرمات، وتجعل صاحبَها يغادر حالةَ التقوى ويهوي في مهاوي المعاصي، ويا بئس ما يفعل!

إنّ الصوم يعالج هذه الحالة قبل أن يحيق خطرها بالمرء، فهو يعوّد المرءَ أن يتحكم في غرائزه، فلا يستجيب لنداءاتها كلما نادته، بل يجعلها تحت سلطان عقله، فيلبي النداء حينما لا يكون ثمة ما يمنع ولا تكون

التلبية مصادمة للنداء الإلهي بالتقوى، ويتجنب الاستجابة حينما تكون سائقة له نحو التردي في المعاصي. وهذا ما صرّح به أيضًا الإمام الرضا عليه السلام: «... مع ما فيه من الانكسار عن الشهوات»[١].

د - **تربية الإخلاص**، تحدثت مجموعة من الروايات الشريفة عن علاقة الصوم الوثيقة بالإخلاص لله تعالى، فمن هذا مثلًا ما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في سياق حديثه عن الفرائض الإلهية: «والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق»[٢]، وكذلك ما عن سيدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام: «فرض الله الصيام تثبيتًا للإخلاص»[٣].

وهذه العلاقة الوثيقة بين الصوم والإخلاص تجلّت تجليًا صريحًا في كون الصوم قد عُبّر عنه في الروايات بكونه لله تعالى، مع أنّ العبادات كلها يُفترض فيها أن

(١) ميزان الحكمة ٥: ٤٦٦.
(٢) نهج البلاغة، الكلمة القصيرة ٢٥٢.
(٣) ميزان الحكمة ٥: ٤٦٦. وقد تناولتُ هذه الكلمة الفاطمية الشريفة بالشرح والتحليل في كتابي «قبسات من نور كلام أهل العصمة عليهم السلام».

تكون لله، فهذا شرط صحتها وأساس قبولها، لكن للصوم مع ذلك مزيته، حتى ورد في الحديث القدسي المعروف: «الصوم لي وأنا أجزي به»[١]. والقراءة المشهورة لهذا الحديث هي ببناء الفعل للمعلوم (أجزي)، لكن له قراءة أخرى ببنائه للمجهول (أُجزى)، وعن هاتين القراءتين ومدلول كل واحدة منهما كتب العلامة الطباطبائي في ميزانه: «وقوله: أنا أجزي به، إن كان بصيغة المعلوم كان دالًا على أنه لا يوسّط في إعطاء الأجر بينه وبين الصائم أحدًا، كما أنّ العبد يأتي بما ليس بينه وبين ربه في الاطلاع أحد، نظير ما ورد أنّ الصدقة إنما يأخذها الله من غير توسيطه أحدًا، قال تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٢]، وإن كان بصيغة المجهول كان كناية عن أنّ أجر الصائم القرب منه تعالى»[٣].

إنّ أساس ارتباط الصوم بالإخلاص مرجعه إلى أنّ

(١) سفينة البحار ٥: ٢١٤.
(٢) سورة التّوبَة، الآية: ١٠٤.
(٣) الميزان في تفسير القرآن ٢: ٢٥.

الصوم تتمثل حقيقته في النفي والترك، فهو ترك الإتيان بالمفطرات كلها، بخلاف العبادات الأخرى التي هي في حقيقتها عمل وفعل، أي هي إثبات ووجود. ومن البيّن أنّ ثمة فارقًا أساسيًا بين ما هو فعل وما هو ترك، فالفعل يمكن أن يطّلع عليه الآخرون، فيكون للرياء والتباهي مدخل إلى نفوسنا الضعيفة، في حين أنّ الترك شيء مخفيّ، وفي وسع الإنسان أن يبقيه مخفيًا إذا شاء، فلا يطّلع عليه إلا العالم بالخفيات والمطّلع على القلوب وما في السرّ ﷻ؛ لذا كان الصوم أقرب من غيره من العبادات إلى ساحة الإخلاص ومقام التوحيد العبادي لله (جلّت عظمته).

هـ - **تقوية الأواصر الإنسانية**، فالصوم يعمل على إذابة الفوارق بين الأغنياء والفقراء؛ ذلك أنّ هؤلاء وأولئك يشتركون جميعًا في تروكهم للمفطرات، دونما فارق أو تفاوت، فيشعر الغني بألم الجوع والعطش، الألم الذي ما كان ليشعر به لولا الصوم، ويجعله هذا يعرف عمليًا ما يعانيه الفقراء والمحرومون والمستضعَفون

في أي مجتمع طوال العام، فيكون هذا داعيًا له إلى أن يقف إلى جوارهم، محاولًا إعانتهم ورفع ما يمكنه رفعه من آلام معاناتهم وصعوبات عيشهم، الأمر الذي يكسر الحواجز الطبقية والمادية بين أفراد المجتمع الواحد، ويعمل على توحيدهم، ونزع الضغائن والأحقاد التي لربما تكمن في بعض النفوس المحرومة أو كثير منها، وفي هذا وقاية للمجتمع وصيانة له من كثير من الجرائم والمشكلات الاجتماعية المترقبة. وإلى هذا المعنى قصد الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذ قال: «إنما فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير؛ ذلك أنّ الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير، وإنّ الغني كلما أراد شيئًا قدر عليه، فأراد الله أن يسوّي بين خلقه وأن يذيق الغني مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع»[1].

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١: ٣٦٩.

العطاء الأخير:

العبادات الإسلامية ليست مجرد شعائر تعبّدية تُمارس لأنها مطلوبة دينيًا وكفى، من دون أن تكون لها آثارها العملية الواضحة في شخصية الفرد والمجتمع، بل هي، في واقعها، ذوات آثار عظيمة في الحياة كلها. «التقوى» الوارد ذكرها هنا مفهومها مطلق، لا تقيّده قيود بمجال دون مجال، أو بزمان أو مكان معيّنين، فهي ترافق الإنسانَ أينما كان، وفي أي مجال تحرّك، فثمة التقوى في الاقتصاد، والتقوى في السياسة، والتقوى في الاجتماع، وكذلك في التربية والأخلاق والثقافة... وهكذا.

إنّ التقوى، في عمقها وحقيقتها، تقود البشريةَ كلها إلى الوصول إلى حالة «الهدى»، أي الحالة التي ذكرها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «من غرس أشجار التقى جنى ثمار الهدى»[1]. وسيكون نفلًا من القول،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي، ص ٤٤١.

بعدئذ، أن يتحدث المرء عن درجة السموّ والتكامل التي من شأن الإنسانية أن ترتقي إليها إذا ما وصلت إلى درجة الهدى وتنعمت باجتناء ثمارها اليانعة.

وإذ قد تبيّن هذا، ظهر مدى البعد عن الصواب في كلمات أولئك الكتّاب والمفكرين المعاصرين الذين يلهجون بضرورة الفصل في الفكر الإسلامي بين ما يسمونه «قشورًا» وما يسمونه «لبابًا»، محتسبين العبادات كلها قشورًا، لا ينبغي أن نعتدّ بها كثيرًا أو أن نشترط ضرورة وجودها في حياة المسلم والمسلمين، فهي في أنظارهم لا تمسّ روح الإسلام وأسس بناء الشخصية المسلمة في شيء، والمهم عندهم أن يحافظ المسلم على اللباب المتمثل في إيمانه الموجود في قلبه، ويكفي أن يتحقق هذا حتى إذا لم يحفظ المسلم عباداته ويطبق سائر الأحكام الشرعية الأخرى في حياته!

إنه لضيق أفق عجيب عند هؤلاء الذين يشطحون بهذه الترّهات والأباطيل ويذهبون في نشرها شططًا؛ فالحقّ أنّ العبادات عنصر أساس ومكوّن رئيس في بناء شخصية

الفرد وتكوين المجتمع الصالح، وهكذا شأن الإسلام في كل أحكامه وتشريعاته، أما الفصل فيه بين ما يتوهمونه قشورًا وما يسمونه لبابًا، فليس سوى زيغ في النظر، ووقوع في الخطل، نسأل الله تعالى الوقاية من ذلك كله، والهداية إلى سواء السبيل.

١٣ - العبادة حتى اليقين

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[١].

ابتدأت الآية المباركة بالأمر بعبادة الرب، واحتمل المفسرون في تفسير المراد احتمالين: فالاحتمال الأول أن يكون المراد الإتيان بالعبادات، فيكون هذا المقطع القرآني «كالمفسر للآية السابقة» بتعبير العلامة الطباطبائي[٢]، والآية السابقة هي قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[٣]. والاحتمال الآخر - وهو الظاهر من السياق على ما

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٢: ١٩٥.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٨.

اختاره صاحب الميزان وآخرون - أن يراد انتهاج منهج التسليم والطاعة للرب في كل مجالات الحياة والانطلاق من منطلق العبودية له سبحانه في كل مجال وكل فاعلية، فتكون الحياة كلها، بناءً على ذلك، محلًا لعبادة الله تعالى بالمعنى الشامل الوسيع.

وهذه العبادة للرب - بأي معنى فُهمت - لا بد أن تستمر ولا تنقطع حتى مجيء «اليقين»، والمقصود من «اليقين» هو الموت، كما في الآية الأخرى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[1]، والسرّ في تسمية الموت يقينًا هو إما في كونه حتميًا متيقنًا لا شك فيه، وإما لارتفاع الحجب بعده عن الإنسان واتضاح الحقائق والمغيّبات، كما في الأثر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[2].

وبعد، ففي الآية الشريفة جهات للفوائد، نتوقف منها عند ما يأتي:

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ٤٦ - ٤٧.

(٢) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني ٧: ٤٢.

الجهة الأولى:

الموت حقيقة متيقّنة لا ينبغي للمؤمن أن يغفل عنها، بل لا بد - عملًا بتوصيات المعصومين - من الإكثار من ذكرها؛ وذلك لما لهذا الذكر من أثر تربوي عميق في النفوس، ففي الحديث النبوي الشريف: «أكثروا من ذكر هادم اللذات، قيل: يا رسول الله، فما هادم اللذات؟ قال: الموت، فإنّ أكيس المؤمنين أكثرهم ذكرًا للموت، وأشدهم له استعدادًا»(١).

لكنّ شدة تعلّقنا بالدنيا تجعلنا نغفل عن ذكر الموت، فنتعامل معه وكأنه مشكوك في مجيئه، وكأنه كُتب على غيرنا فقط ولم يُكتب علينا! لذا ترانا لا نرعوي عن سيئات أعمالنا، ولا نحسب أي حساب لليوم الذي سنترك فيه الدنيا وكل ما اكتسبناه فيها وراء ظهورنا، بل تجدنا في لهونا سادرين، وفي معاصينا منغمسين، وفي هذا المعنى قال الإمام سيد الوصيين علي عليه السلام: «ما

(١) ميزان الحكمة ٩: ٢٤٦.

رأيت إيمانًا مع يقين أشبه منه بشك على هذا الإنسان، إنه كل يوم يودّع إلى القبور، ويشيّع، وإلى غرور الدنيا يرجع، وعن الشهوة والذنوب لا يقلع. . .»[١]، وعن الحقيقة نفسها عبّر الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «لم يخلق الله عزوجل يقينًا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه، من الموت»[٢].

وحقًا يحار المرء في حالة هذا الإنسان الذي يودّع تارةً بعد تارة حبيبًا أو عزيزًا إلى قبره، ويشيّع شخصًا بعد آخر إلى حيث ضجعته الأخيرة في هذه الدنيا، ومع هذا لا يستحضر أنه يومًا إلى هذا المصير صائر، وإلى ضجعته هذه منتهٍ، وإن استحضر هذا المعنى فإنما هو استحضار وقتيّ عابر، لا يترك في النفس أثرًا، ولا تجد له في السلوك انطباعًا!

(١) نفسه ٩: ٢٣٠.
(٢) نفسه.

الجهة الثانية:

أنْ تكون العبادة لله تعالى مستمرة بلا انقطاع ومتواصلة بلا توانٍ إلى حين نزول الموت، هذه حقيقة قرآنية نحتاج دومًا إلى استحضارها والتأمل الدقيق في مفادها؛ ذلك أنّ ثمة أناسًا يتعاملون مع هذا الجانب بوصفه حالةً موسمية تأتي وتذهب، أو تقوى وتضعف، فتراهم في شهر رمضان مثلًا أو في بعض الأماكن المعيّنة كالمساجد يحرصون على التقرب إلى ربهم بصنوف القربات، ويسعون إلى اجتناب كل المعاصي بل المكروهات أيضًا، لكنهم لا يمتلكون الحماسة نفسها في أزمنة أو أماكن أخرى، وكأنّ الله لا يراقبهم في غير شهر رمضان، أو كأنّ البيت ومكان العمل والسوق وأمثالها من الأماكن ليست أماكن تُكتب فيها أعمال العباد لهم أو عليهم!

وربما تجد بين الشبّان والشابات من لا يجد في مرحلة شبابه دافعًا قويًا في نفسه نحو الالتزام الديني والتمسك بطريق العبودية الحقة، مرجئًا ذلك كله إلى

مرحلة الكهولة وربما الشيخوخة التي لا يمتلك ما يجعله واثقًا بحتمية إدراكها! كل ذلك يُعدّ، في الواقع، غفلةً كبيرة عن وصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «المداومة، المداومة، فإنّ الله لم يجعل لعمل المؤمنين غاية إلا الموت»(١).

ونجد في حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام لهجة وعيد وتخويف من الهلاك، حينما عرض للآية الكريمة التي هي محل كلامنا، وذلك في قوله عليه السلام: «هلك العاملون إلا العابدون، وهلك العابدون إلا العالِمون، وهلك العالِمون إلا الصادقون، وهلك الصادقون إلا المخلِصون، وهلك المخلِصون إلا المتقون، وهلك المتقون إلا الموقنون، وإنّ الموقنين لعلى خلق عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾»(٢).

إذن، فلا محيص عن سعي الإنسان الحثيث نحو

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٥.
(٢) البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، ٤: ٤٢٥.

التخلص من الهلاك واجتنابه، وما ذلك إلا بالمداومة على العبادة وعدم إهمالها في أي آنٍ أو مكان؛ ليكون السير المستمر في طريق العبادة حافظًا له عن التردي في مهاوي الهلكات والسقوط في مستنقعات الضياع.

الجهة الثالثة:

ذهب بعض المتصوفة إلى أنّ هذه الآية الكريمة تدل بصراحة على أنّ العبادة إنما هي مطلوبة في مرحلة ما قبل الوصول إلى درجة اليقين، فأما إذا وصل العبد إلى هذه الدرجة العالية من الارتباط بربه، فصارت المعتقدات عنده كلها يقينية، وأصبح يرى الأشياء من حوله على ما هي عليه في حقائقها دونما حجاب، فلا عبادة عندئذ، إذ العبادة غايتها المحددة قرآنيًا هي الوصول إلى اليقين، وإذا تحقق هذا الوصول انتفت الحاجة إلى العبادة!

إنّ هذا الكلام هو، في الواقع، أوهن من بيت العنكبوت، ويمكن أن يُردّ من نواحٍ متعددة، أهمها:

أ - الحياة الدنيا هي دار تكليف، فلا يمكن القبول بالادعاء الذي ينفي عنها هذه الصفة، أي لا يمكن تصوّر أن تكون ثمة أوقات أو حالات في أثناء الدنيا تنتفي فيها التكاليف عن بعض البشر، مهما كانت الدرجات الإيمانية التي أدركوها.

ب - المخاطَب في الآية المباركة هو النبي الأكرم محمد ﷺ، فهل يمكن لمدّعٍ أن يدّعي أنه ﷺ لم يكن واصلًا إلى درجة اليقين حتى يقال له: استمر في عبادتك إلى حين الوصول إلى تلك الدرجة؟ لا شك ولا ريب في أنّ سيّد الكائنات وأشرف الخلق ﷺ كان حائزًا هذه الدرجة، بل كل درجة يمكن للبشر أن يصلوا إليها، فلا معنى، والحال هذه، لافتراض مطالبته بالعبادة إلى أن يصل إلى درجة هو واصل إليها من ذي قبل!

ج - لم يُنقل في السيَر المطهرة للنبي والأئمة المعصومين من آله (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) أنّ أحدهم ترك العبادة في أية مرحلة من مراحل حياته، ولو كان مثل هذا الحدث الغريب الكبير قد صدر

لاستفاض نقلُه، بل لتواتر؛ نظرًا لأهميته وغرابته في آنٍ!

ولو كانت العبادة محدودة المجال فعلًا بما قبل الوصول إلى مرحلة اليقين، لما أطبق المعصومون جميعًا في كل آنات حيواتهم المباركة على التمسك بها وعدم التنازل عنها في أي وقت من الأوقات.

الحق، إذًا، هو ما تقدم من أنّ المراد من «اليقين» في الآية إنما هو الموت، وليس اليقين الاعتقادي أو الشهودي، فأما ما قبل الموت فلا يرتفع قلم التكليف عن أحد؛ «فإنّ البالغ العاقل لا يزول عنه التكليف بحسب طاقته ما لم يمت، أو عاين، ولو عاش عمر الدنيا أو أضعافه كالملائكة»[١].

(١) تيسير التفسير، الشيخ محمد بن يوسف إطفيش، ٧: ٤١٨.

الجهة الأخيرة:

بعد أن اتضح أنّ شبهة المتصوفة ليست في محلها، وأنّ الإنسان مطالب بالعبادة ما دام حيًا، مهما بلغت الدرجة التي نالها من الإيمان واليقين، قد تثار هنا شبهة أخرى تتعلق بالعبثية، فيمكن أن يقال: إنّ بقاء التكليف بالعبادة بعد وصول الإنسان إلى كماله يستلزم العبث، فما دامت العبادة هي أساسًا للرقيّ بالإنسان إلى مراقي الكمال، فأيّ معنًى وأية فائدة لبقائها بعد افتراض تحقق الغرض منها ووصول صاحبها إلى الكمال؟

أجاب العلماء[1] عن هذه الشبهة بأنّ التكاليف الشرعية - ومنها التكاليف العبادية - ليس غرضها الإيجابي محصورًا في صاحبها الفرد وحده، بل تتناول هذه الآثار الإيجابية المجتمعَ أيضًا. فمع افتراض

وصول الفرد إلى درجة كماله وعدم وجود مزيد من

(١) يراجع مثلًا ما ذكره صاحب الميزان ١٢: ٢٠٠، وصاحب الأمثل ٨: ٩٠.

الكمال ليسعى إليه[١]، فإنّ من المهم أن نلحظ أنه يعيش ضمن مجتمع، وتربطه مع الآخرين من حوله علاقات وأواصر متنوعة، وهو يدخل - لا محالة - في معاملات كثيرة، وهذه كلها تحتاج إلى شرائع ناظمة وقوانين حاكمة، فلا مناص من الاحتياج للشرع الحكيم.

ثم، إنّ الثابت في الحكمة عدم إمكان الانفكاك بين الملَكة وآثارها، فلكل ملَكة - وهي الصفة الراسخة في النفس - آثارها الخاصة بها، وهذه الآثار ملازمة لوجود الملَكة نفسها، فلا تتخلف عنها، فمن كان يحمل في نفسه ملَكة الكرم مثلًا، لا بد أن تظهر في سلوكه الخارجي آثارها، فتراه يكرم غيره في الأحوال كلها، مهما كانت، وكذلك الحال في من يحمل ملكة الكمال واليقين، فإنّ من آثارها أن يشتغل صاحبها بعبادة ربه على الدوام، وليس يمكن لهذه العبادة أن تتوقف ما دامت الملَكة نفسها باقية.

---

(١) وهذا الافتراض غير واقعي في حد نفسه؛ لأنّ درجات الكمال لا نهاية لها.

وخاتمة القول: إنّ علاقة المؤمن بعبادة ربه علاقة دائمة ثابتة، لا تنتهي ولا تضعف، فهي علاقة «عشق» حقيقي، مثلما جاء في الحديث النبوي الشريف: «أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على عسر أم على يسر»[١].

(١) ميزان الحكمة ٦: ٩.

الفهرس

الموضوع الفهرس

١ - الخلق للعبادة ١١
٢ - عبادة الهوى ٤١
٣ - العبادة على حرف ٦٥
٤ - اطمئنان القلوب بذكر الله ٧٧
٥ - ترك الذكر يساوق تسلط الشيطان ٩١
٦ - العبودية الحقة نافية لسُلطة الشيطان ١٠٤
٧ - تجارة غير بائرة ١١٥
٨ - الدعاء: شرائط الاستجابة ووجوه الأهمية ١٢٨
٩ - لولا دعاؤكم ١٦١
١٠ - الصلاة المؤثرة الآمرة ١٧٢

١١ - إقامة الصلاة ١٨٧
١٢ - الصوم والتقوى ٢٠٣
١٣ - العبادة حتى اليقين ٢٢١

IslamicMobility.com

In the age of Information
Ignorance is a choice

"Wisdom is the lost property of the Believer,

let him claim it wherever he finds it"

Imam Ali (as)